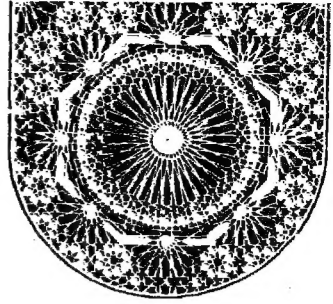


حیلمی مراد یقینم کنوز کتب التراث



أودیب الملك

ومسرحیات أخرى

١٥



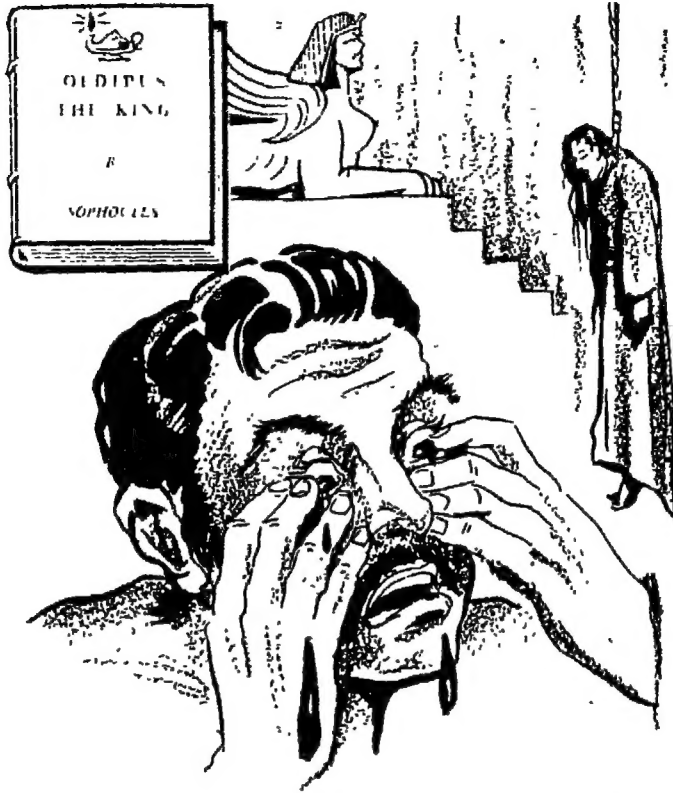
حلمى مراد يقدم :
من روائع المسرح العالمى

أوديب الملك

ومسرحيات أخرى

- | | |
|------------------------------|----------------------|
| ١ - أوديب الملك | (سوفوكليس) |
| ٢ - فى سبيل الحب | (جون درايدن) |
| ٣ - فوليون (الثعلب) | (بن جونسون) |
| ٤ - الأبرار | (ألبير كامى) |
| ٥ - المرأة بين الحلم والواقع | (لويجي بيرانديللو) |
| ٦ - بيت الليل | (تيرى مونييه) |

النشر
مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



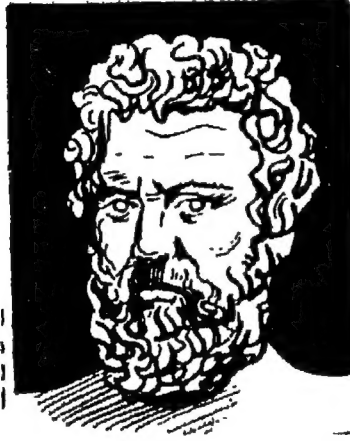
درة الأدب الإغريقي

أوديب الملك

مأساة تمثيلية كبرى : سوفوكل

المؤلف

(٤٩٥ — ٤٠٥ قبل الميلاد)



● يعتبر « سوفوكليس » عميد مؤلفى المسرح الإغريقى قاطبة ..
وقد كتب أكثر من مائة مأساة تمثيلية ، فقدت غالبيتها فلم يبق من هذا
التراث الخالد غير سبع مآس فقط ، هى حسب تاريخ تأليفها : أنتيجون ،
إليكترا ، تراخينيا ، أوديب الملك ، أجاكس ، فيلوكتيتس ، أوديب فى
كولوناس .. ولو اقتصر إنتاج سوفوكليس على هذه المسرحيات السبع
لكفت لاعتبار الدور الذى لعبه فى تطور المأساة الإغريقية دورا خالدا فى
تاريخ الأدب ! ويمتاز سوفوكليس بروعة البناء الفنى لمسرحياته ،

و« إنسانية » موضوعاته وأسلوبه ، على النقيض من زميله ومعاصره « أسخيلوس » الذى نبغ فى تمجيد « البطولة » بصفة خاصة .. بل إن سوفوكليس يتفوق حتى على ثالثهما « يوريبيدس » لسعة أفق الحياة والعواطف التى يصورها فى تمثيلياته ، وعمق تحليله للطبيعة البشرية .. وكفاه فخرا أنه خلق شخصية « أوديب » الخالدة ، وشخصية الإنسان الذى تغلب عاطفته عدله ، وبرغم ذلك نستشف النبيل وراء دوافعه وحوافزه !.. ويعتبر أكثر النقاد مسرحية أوديب أعظم مسرحيات سوفوكليس جميعا ، وقد أشار إليها « أرسطو » مرارا فى سفره الذى سماه « فن نظم الشعر » . وأغلب الظن أن سوفوكليس كتبها لتمثل فى إحدى المسابقات المسرحية الدورية التى كانت تقام فى أثينا فى ذلك العصر ، والمرجح أنها مثلت لأول مرة سنة ٤٢٥ ق.م .

وقد ولد سوفوكليس فى « كولوناس » ، بالقرب من أثينا ، عام ٤٩٥ قبل الميلاد .. وعاش فى العاصمة الإغريقية الزاهرة حياة طويلة (بلغت التسعين عاما) ، عاصرت الحروب الفارسية .. وعصر برلكليس .. وفترة من الصراع ضد إسبرطة !

شخصيات الرواية

Oedipus	أوديب : ملك « طيبة »
Jocasta	جوكاستا : زوجة أوديب
Creon	كريون : شقيق جوكاستا
Tiresias	تيريسياس : عراف أعمى
Antigone	أنتيجون : ابنة أوديب
Ismene	إيسمين :
Two Messengers	رسولان
Shepherd	راع

تمهيد للرواية : أسطورة أوديب

● قبل أن يجلس أوديب على عرش « طيبة » كان يحكمها ملك يدعى « لايوس » . وكانت الملكة « جوكاستا » - زوجة الملك الجديد - زوجة للملك السابق في حياته ، فلما رزقا ابنا ذكرا انزعج الوالدان أيما انزعاج ، فقد تلقى الأب وحيا من معبد دلف المقدس انطوى على نبوءة له بأنه سوف يقتل بيد ابنه الذكر الذى سيرزق به في المستقبل !.. فرأى الملك أن يتخلص من هذا الخطر بالتخلص من ابنه الوليد ، فأمر بأن تثقب

قدما الطفل وتقيدا بحربة مسنونة إلى صخرة على سفح جبل « كيثايرون »
المهجور .. حتى يلقي الوليد حتفه !

لكن الأقدار تدخلت لإنقاذ الطفل البريء ، فقد أشفق عليه رسول
الملك الذى كلف بإهلاكه ، فتركه فى ظل كهف ظليل ، لينجو على الأقل
من وزر قتله .. وصادف أن مر بالمكان راع كان يبحث عن ماشيته
الضالة ، فعثر بالطفل .. وحمله إلى بلاط ملك كورينثة المدعو
« بوليوس » وزوجته « ميروب » فكفلاه وتبنياه ..

وشب الطفل « أوديب » فى بلاط ملك كورينثة حتى بلغ مبلغ
الرجال .. وذات ليلة ، فى إحدى الحفلات ، لعبت الخمر برأس أحد
السمار فأبدى تشككه فى نسب أوديب ! الأمر الذى دفع هذا إلى المبادرة
باستشارة الآلهة بشأن نجمه .. فتنبأوا بأنه سوف يذبح أباه ويتزوج من
أمه ! .. وإذ أزعجت النبوءة أوديب ، بادر من فوره إلى الفرار من بلاط
« والديه » ملكى كورينثة ، رغم أنه لم يعرف له فى الدنيا أهلا سواهما ،
إشفاقا عليهما وعلى نفسه من المصير الرهيب الذى تنبأت له به الآلهة !

لغز « أبو الهول » !

● فى تلك الأثناء ظهر فى طيبة الوحش « أبو الهول » ، مروعا أهلها
بلغزه العجيب المستعصى الذى أخذ يلقيه على كل من يصادفه ، فإذا عجز
عن حله قتله لساعته ! .. وكان اللغز المطلوب حله هو هذا : « ما هو
المخلوق الذى يمشى فى الصباح على أربع ، وفى وقت الظهرية على رجلين

ووقت الغروب على ثلاثة أرجل !

و لم يستطع أحد من الذين صادفهم الوحش ووجه إليهم اللغز أن يهتدى إلى حله ، فمضى « أبو الهول » يمعن في أهل طيبة ذبحا وقتلا .. حتى ضج سكان المدينة فزعا من هذه الكارثة التي هبطت عليهم ، وبلغت فواجعهم واستغاثاتهم مسامع الملك لايوس ، فحزن لمصير شعبه .. ولم يجد بدا من التوجه مع نفر من حاشيته إلى معبد « دلف » لاستشارة الآلهة فيما ينبغي فعله لوقف غضبها الذي صبته على المدينة .. لكن الموكب التقى في الطريق بأمرير مجهول من أمراء كورينثه (لم يكن سوى « أوديب » الهارب من بلاط والديه ، فرارا من قدره المقسوم !) فنشبت بين أوديب وبين المسافرين في ذلك الموكب — وكان يجهل شخصياتهم ! — مشادة تطورت إلى مبارزة ، صرع فيها الأمير الملك لايوس وأفراد حاشيته جميعا ، ما عدا واحدا استطاع أن ينجو بنفسه !

وحين نفض أوديب سيفه من المعركة ، واصل سفره متجها إلى « طيبة » دون أن يدور بخلده أنه قتل لتوه ملكها ! فلما وصل إليها واجه الوحش أبا الهول ، الذي ألقى عليه لغزه المحير .. فوقف أوديب إلى الحل الذي عجز عنه أهل المدينة جميعا : قال إن المخلوق المقصود باللغز هو الإنسان ، فهو يمشى في طفولته على أربع ، وفي شبابه على رجلين ، وفي شيخوخته على رجلين ثالثهما العصا التي يتوكأ عليها !

وإذ كان هذا الحل هو الصائب ، قفز أبو الهول من فوق صخرته واختفى عن الأنظار ! .. وفي الوقت الذي هلل فيه الشعب فرحا بالخلاص من اللعنة التي كانت قد حلت به ، وصلت أنباء مصرع الملك لايوس

وحاشيته في الطريق ، على صورة غامضة ، بيد أشخاص مجهولين .. فلم يجد الشعب خلفا يجلسه على العرش الشاغر خيرا من الأمير « أوديب » الذى أنقذه من الوحش ، فوهبه تاج الملك الراحل وزوجته جو كاستا ! واستقر أوديب وزوجته جو كاستا على عرش « طيبة » .. وتتابعت الأعوام ..

١

● فإذا رفعت الستار عن الفصل الأول من المسرحية ، فقد انقضى على هذه الأحداث اثنا عشر عاما ، أثبت الملك أوديب خلالها مقدرة فائقة وكفاءة ملحوظة في حكم البلاد .. ونعمت « طيبة » طيلة تلك السنوات بفترة يسر ورخاء .. حتى تفشى فيها فجأة وباء الطاعون ! فهرع الشعب إلى الميدان المواجه لقصر الملك ، وأرسلوا إليه وفدا منهم يلتمس منه إنقاذ رعاياه من الوباء المروع ، كما أنقذهم منذ اثني عشر عاما من الوحش ألى الهول ! فيجيب أوديب على توسلات مندوبى الشعب قائلا إنه قد بادر بالفعل إلى إرسال شقيق زوجته الملكة — المدعو كريون — إلى معبد دلف ليسأل الآلهة عما ينبغى فعله لرفع غضبها عن المدينة .. وفيما الملك يتكلم ، يصل كريون عائدا من مهمته :

أوديب : حدثنا أيها الأمير المحبوب ، أى جواب مقدس تحمله إلينا من آلهة معبد دلف ؟

كريون : أن تثار لدم ملكنا السابق لايوس !

أوديب : نثار؟ ولكن كيف؟ كيف نلاحق الإثم المطمور في طبقات
الماضي المريب؟ كيف نعثر على القتلة؟
كريون : الإله يشترط لكي يرفع عنا الوباء أن نقص من القتلة
أولا !

● لكن أوديب لا يعلم من قصة مصرع سلفه أكثر من أنه قُتل في
ظروف غامضة ، فيستفسر الآن من حاشيته عن التفاصيل ، فيعلم أنه
قُتل بيد عصابة من اللصوص ، هو وأفراد حاشيته جميعا ، باستثناء شخص
واحد عاد سالما ، لكن الصدمة هزت أعصابه وطمست ذاكرته بحيث لم
يعد يذكر شيئا من تفاصيل المأساة !

واستجابة لسخط الشعب يتحمس أوديب لفكرة النثار من القتلة
ويستمطر اللعنات عليهم ، متوعدا إياهم بأشد العقاب .. ويقسم أمام
رجال حاشيته على ذلك !

وهنا يستحثه كريون على استدعاء العراف الأعمى المسن
« تيريسياس » ، لعله يستطيع الاهتداء إلى مفتاح الجريمة .. فيحضر
العراف ، يقوده صبي صغير .

أوديب : تيريسياس ، أنت ترى كيف يفتك الطاعون الخيف
بشعبنا البريء .. فانقذنا جميعا من اللعنة التي خلفها الموتى
وراءهم .. تكلم ، أفصح لنا عن اسم قاتل الملك لايوس !
تيريسياس : أنا أفصح؟ بل دعوني أذهب إلى بيتي بسلام !
أوديب : أنت تعرف القاتل ولا ترشدنا إليه؟ .. تتركنا حتى يهلك
الوباء شعبنا؟

تيريسياس : ماذا تريدنى أن أقول ؟ إنك تواجهنى بسؤال لن أجيبك عليه .. لخير للجميع ألا أبوح بما أعرف ! .. ولندع الأيام تميط بنفسها اللثام عن الحقيقة ..

● لكن إحجام العراف عن الإرشاد إلى القاتل يثير ثائرة الملك أوديب ، وشكوكه ، فيرجح أن يكون العراف نفسه مدبر الجريمة .. ويواجهه بالتهمة ! .. وإزاء هذا يضطر العراف إلى الدفاع عن نفسه ، غاضبا لشرفه وطهارته يده ، فيلقى أخيرا بالحقيقة فى وجه أوديب ..

تيريسياس : إنك أنت سبب البلاء ومصدر الوباء .. أنت أنت القاتل الذى تبحث عنه !

أوديب : ماذا تقول ؟ كيف تجرؤ ؟!

تيريسياس : أو لم تلح علىّ فى الإفصاح عن اسم القاتل الذى يطلب الإله الاقتصاص منه كى يرفع الوباء عن طيبة ؟ إنك أنت مصدر اللوثة التى أغضبت الإله فأهلك من أجلها شعبك !

● ويستخدم النقاش ، فيتهم أوديب شقيق زوجته « كريون » بأنه الموحى إلى العراف بهذه الفرية ، طمعا فى اغتصاب عرشه !

أوديب : يا لسلطان الحسد ، الذى جعل مخلصا قديما مثل « كريون » يسعى الآن بالخديعة كى يطيح بى عن عرشى ، مستأجرا هذا المشعوذ الدنىء ، الأعمى عن

كل شيء عدا الكسب الحرام !
تيريسياس : لست أنا الذى جئت من تلقاء نفسى ، وإنما أنت الذى
استدعيتنى .. وها أنا ذاهب ، بغير أن يجبرنى على ذلك
خوف منك ، فلست أنت القوة التى تملك إيدائى !
ودعنى أكرر على مسمعك : إنه هنا ، قاتل الملك لا يوس
الذى تبحث عنه .. ولن يعود عليه كشف الحقيقة بالخير
والغبطة ، فلسوف يفقد البصر وهو المبصر !.. ويفتقر ،
وهو الذى يرفل الآن فى الثراء !.. ولسوف يمضى منبوذا
إلى بلاد غريبة !.. كيف لا وهو والد أطفاله وشقيقهم
... ابن أمه وزوجها !.. البذرة ، والباذر ، والمبذور !..
الفاسق بأمه ، والقاتل لأبيه !
فإذا أفرغ العراف الأعمى جعبته من هذه اللعنات والنبوءات ،
استحث الصبى أن يقوده إلى الباب ...

٢

● فإذا كان الفصل الثانى فقد أمر أوديب بقتل « كريون » شقيق
زوجته ، بتهمة التآمر على عرشه !.. فلجأ كريون إلى الشعب يحاول أن
يستنصفه من ظالمه ، ويثيره ضد طغيانه !.. وتقف الزوجة الحكيمة —
« جو كاستا » — فى هذه المحنة موزعة القلب بين زوجها وشقيقها ..
وتلمح بوادر انقسام فى صفوف الشعب ، وثغرة فى ولائه للملكه

« الظالم » ، فتنهزها فرصة لإقناع أوديب بعدم اللجوء إلى العنف أخذا
بشائعة لم يقيم عليها دليل ، واندفاعا وراء عاطفة غضب موقوتة ..
وتضم حاشية الملك صوتها إلى صوت الملكة .. فيرضخ أوديب ،
ويكتفى « بنفى » كريون بدلا من قتله !
وإذ تخلو « جوكاستا » إلى زوجها تحاول أن تزيل أثر العداء الطارئ
بينه وبين شقيقها :

جوكاستا : أو تصدق مزاعم العرافين ؟ .. إنهم بشر ، ما أضال معرفتهم
بالغيب ، وأكذبهم ! وإليك الدليل ..

● وتقص عليه قصة النبوءة القديمة التي أوحى إلى زوجها السابق
« لايوس » بأنه سيرزق ابنا ، ويموت قتيلا بيد هذا الابن نفسه ! ..
وتستطرد جوكاستا إلى أن لايوس مات مقتولا بالفعل ، لكنه إنما قتل بيد
تلك العصابة من اللصوص التي هاجمته « في مفترق ثلاث طرق » ..
فضلا عن أن ابنه الذى رزقه قد ألقى وهو بعد في يومه الثالث ليلقى حتفه
على سفح جبل مهجور ، بعد أن سمرت قدماه في إحدى الصخور بحربة
مسنونة .. بحيث لا يمكن أن يكون قد عاش وحقق النبوءة !

لكن جوكاستا لا تكاد تشير إلى أن لايوس قد قتل عند « مفترق
ثلاث طرق » حتى يدب في ذاكرة أوديب ديب غامض ، يزداد
إزعاجا له وإلحاحا على ذهنه حين يعرف أن مفترق تلك الطرق يقع في
جهة « فوكيس » ! .. وإذ تتفاقم هواجسه لا يملك نفسه من إشراك
زوجته فيها ، لعله يجد عندها ما يرد الطمأنينة إلى ضميره .. وهكذا ييوح
لها بأنه شب معتقدا أنه ابن « بوليباس » و « ميروب » ملكى كورينثه ،

حتى أفلت لسان أحد السكارى فى مأدبة كان يحضرها فقال إن أوديب ليس ابن الملكين الحقيقي .. وأزعجه هذا القول فمضى ذات يوم ليستشير الإله بأنه سوف يقتل أباه وينجب نسلا من أمه ! — دون أن يزيد الوحي على ذلك حرفا .. فاعتقد أوديب أن قول ذلك الخمرور الماجن بصدد نسبه كان فرية كاذبة ، وإذ حشى على أبيه وأمه — ملكى كورينثة — من تحقق النبوءة الجديدة بادر إلى الفرار من كورينثة ليقتضى حياته فى طيبة .. وفى الطريق ، عند ملتقى ثلاث اتجاهات ، التقى بعربة تقل سيدا وعددا من خدمه ، وإذ كان الطريق ضيقا لا يتسع لمروره هو والعربة فى وقت واحد ، تحرش به أحد الخدم ، فقتله أوديب .. ثم قتل سيده الذى هب لمهاجمته .. ثم أجهز على بقية الركب الذين أرادوا الانتقام لقتلهم !.. وهكذا لم ينج من ركاب العربة غير خادم أخير لاذ بالفرار ..

وإذ يفرغ أوديب من رواية القصة لزوجته ، تزداد مخاوفه من أن يكون هو قاتل لا يوس حقيقة ، ولا يبقى لديه غير ثمة بصيص ضئيل من الأمل فى أن يكون التشابه بين ظروف المعركتين محض مصادفة .. فيصيح وقد أزمع أن يقطع الشك باليقين :

أوديب : أحضروا فوراً ذلك الخادم الذى نجا !

● فإذا كان الفصل الثالث فنحن في انتظار وصول الخادم المذكور ، الذى صار الآن راعيا للأغنام .. ونرى «أوديب» مشفقا من حضوره ، فى حين تحاول زوجته جو كاستا أن تهدئ من مخاوفه وتطامن من انزعاجه بالقول إن الأمر لن يتكشف عن شيء ذى بال ، ولن تتحقق نبوءة الآلهة بحال !

وفى هذه الأثناء يقبل رسول من كورينثة فيعلن أن الملك «بوليباس» قد مات ، فأصبح ابنه أوديب ملكا على كورينثة . ويفرخ روع أوديب لهذا النبأ الذى يكذب على الأقل نصف نبوءة الآلهة ، فقد مات بوليباس نتيجة المرض ولم يمت مقتولا بيد ابنه أوديب .. وإذن لم يبق أمام هذا ما يخشاه غير النصف الآخر من النبوءة ، الخاص بإنجاب نسل من أمه ! وإزاء ذلك ينهى أوديب للرسول أنه لن يقبل عرش كورينثة ، خشية أن توقعه الظروف فى شرك الاتصال بملكها ميروب — أمه — فتحقق النبوءة ! وهنا يتصدى الرسول لتبديد مخاوف الملك ، فيصارحه بأنه ليس ابن بوليباس وميروب حقيقة ، بل ابنيهما بالتبنى فقط !.. ويدعم الرسول زعمه بالقول إنه هو الذى حمل أوديب الطفل إلى بلاط ملكى كورينثة ، بعد أن وجده مقيدا من قدميه إلى صخرة على سفح جبل

« كيثايرون » وكان الذى أرشده إلى مكانه راع من زملائه كان يعمل
قبلا فى خدمة الملك لايوس !

ويجمد الدم فى عروق الملكة جو كاستا وهى تنصت إلى أقوال الرسول
التي تميظ اللثام عن الحقيقة الرهيبة .. وتحاول أن تثنى أوديب عن فكرة
استدعاء ذلك الراعى الذى يملك وحده مفتاح الموقف !.. لكن الملك
المعذب قد صبح عزمه على نبش الحقيقة من مرقدتها وكشف النقاب عنها
مهما كانت بشاعتها وأيا كان الثمن !

ويقترح أحدهم أن تفصح الملكة عن اسم خادمها القديم ، لكن
التعسة تناشد « زوجها » أن يصم أذنيه عن الشائعات والترهات ، ويطلق
بحثه عن الحقيقة طلاقا حاسما :



جو كاستا : بحق الآلهة كف عن التحرى والاستقصاء ، إذا كانت

(أوديب الملك)

لحياتك قيمة فى نظرك .. كفى شقائى وأسائى ! أواه
يا ابن الأمل والويلات ، أتوسل إليك يا إلهى ألا تطلعنى
على الحقيقة قط !

أوديب : (فى إصرار) فليحضر الراعى إلى هنا دون إبطاء !
● ويمضى الرسل لتنفيذ الأمر .. فتطلق جوكاستا صرخة لوعة
ويأس ، وتنطلق من الحجرة لا تلوى على شئ ! بينما يلاحقها صوت
أوديب قائلاً فى لهجة احتقار إنها إنما تخشى انكشاف سر مولده ونسبه لأنه
كفيل بطعن كبريائها فى الصميم ..

ويقاد إلى الحجرة شيخ مسن يرتجف خوفاً .. فلا يكاد يقع عليه بصر
الرسول القادم من بلاط ملك كورينثة حتى يتعرف فيه على شخص
الراعى الذى أعطاه الطفل أوديب ! .. ويدرك الراعى من فوره بشاعة
المأساة ، فيحاول عبثاً إسكات الرسول الثرثار .. ولكن دون جدوى ،
فقد فات الأوان !

وتحت تأثير تهديد أوديب للراعى بالتعذيب ، يعترف المسكين بأن
أوديب هو ابن الملك السابق لايوس وزوجته الملكة جوكاستا ، وأنهما
قد أعطياه إياه ليهلكه .. لكن قلبه لم يطاوعه على ارتكاب هذه الجريمة
فخان ثقتهما وتركه على قيد الحياة !

أوديب : ويلتاه ! ويلتاه ! ويلتاه ! أخيراً ينكشف كل شئ بوضوح
.. أواه أيها الضياء ، فلتكن هذه نظرتى الأخيرة إليك ، أنا

الذى أدين بمولدى إلى من لا ينبغى أن أدين لهما .. إلى أم
كان ينبغى أن لا أعاشرها ، وأب كان ينبغى أن لا أقتله !
ويندفع إلى داخل القصر كالمجنون .. !



● فإذا كان الفصل الأخير رأينا نفرا من رجال الحاشية يروون ما
وقع عقب حوادث الفصل السابق : فقد أقبل على أوديب رسول يقول إن
جوكاستا قد فرت إلى مخدعها القديم صائحة باسم زوجها الأول
« لايوس » مولولة في فزع وذعر : « ويلي أنا الشقية .. زوج ولد من
الزوج ، وابن ولد من الابن ! » .
وحين يلحق بها أوديب المעذب بعد حين فيقتحم عليها الباب وسيفه
في يده ، يجدها معلقة في وسط الغرفة من رقبتها .. وقد خنقت نفسها
بشعرها !.. فيحل المسكين وثاقها ، ثم يتنزع من صدرها مشبكاً ذهبياً
ويفقأ به عينيه صائحا : « إنكما لن تعودا ترياننى ، أو تريان أساى ،
وخطاياى !.. وأنت يا ضياء النهار ، دعنى أراك للمرة الأخيرة !.. »
ثم يتحامل الملك التعس على نفسه وهو ينزف دم عينيه ، ويطلب أن
يقودوه إلى خارج القصر ليواجه شعبه الوفى .. وهناك ، أمام الجماهير
الباكية يظهر أوديب ، بائساً ، أعمى ، دامى العينين ، فيعلن لشعبه أنه قاتل

ملكهم السابق « لا يوس » وملوث فراش « أمه » التى أنجبتة !.. ويروح
يصب لعناته على الإله أبوللو الذى تنبأ له بهذا المصير ، وعلى الراعى
الأثيم الذى أنقذه من الموت وهو طفل وليد !

ويطالب أوديب قومه أن يدعوه يهيم على وجهه فى الأرض ، ليكفر
عما جنى .. وفى هذه الأثناء يصل « كريون » شقيق الملكة فلا يكاد
يقف على ما حدث حتى يأمر بإعادة الملك إلى داخل القصر :
كريون : إني لم آت أيها العزيز أوديب لأحقرك أو أوبخك من أجل
جرائمك السابقة ..

أوديب : بل فلتطردنى توا خارج هذه البلاد .. فقط ، أوصيك
بابتئى المسكينتين .. ألا دعنى ألمسهما بيدي وأبكى
معهما أحزانى .. امنحنى هذه المنة الأخيرة أيها الأمير !
● ثم يكرر توصيته لخالهما برعايتهما فى يتمهما الطويل ، والسهر
على حمايتهما من الفقر أو العار الذى قد يلحق بهما من جراء إثم
والديهما .. كما يوصيه بتهيئة جنازة لائقة للملكة جو كاستا .. ويستجيب
كريون لتوسلات أوديب فيستدعى له ابنتيه :

أوديب : (وقد أحس بدخول بنتيه « أنتيجون » و « إيسمين ») : أواه
يا إلهى ، هل أسمع نغم صوتكما الحبيب تقطعه
شهقاتكما ؟ تعاليا إليّ يا طفلتى العزيزتين .. إني أبكى من
أجلكما ، من أجل الحياة الكئيبة الموحشة التى تنتظركما

على يد البشر في سنواتكما القادمة .. أواه يا كريون ، لا
تدعهما تقاسيان عناء الحياة بغير أزواج ، أو تتسولان من
أجل خبزهما اليومي ..

كريون : أوديب ، كفى دموعا وبكاء ..

أوديب : بل دعني أبكي .. مصيرهما ، ومصيرى .

كريون : حانت ساعة الفراق ..

أوديب : هكذا سريعا !.. لم يبق إلا أن أذعن لقدرى ونصيبى ،
مهما كان قاسيا ..

● ويتركهم يقودونه إلى حيث شاءوا أن يقضى بقية حياته في

داخل القصر .. في منفى رهيب من العمى والعذاب .

وتغلق خلفه الأبواب !..

(ستار)



فی سبیل الحبّة

مأهارة تمثيلية كبرى : للشاعر "جون درايدن"

البطلة .. والمسرحية .. والمؤلف

عزيزى القارئ ..

إذا كنت قد قرأت من قبل سيرة كليوباترة كما سجلها المؤرخون، فقد بقى أن تقرأ قصة غرامها الأعظم كما تخيله شاعر عظيم .. فغرام « أنطونى وكليوباترة » يكاد يعتبر أشهر حب فى التاريخ ! وقد عالج موضوعه أعظم مؤلفى العالم الموهوبين ، منذ شكسبير ، مدفوعين جميعا بحافز واحد ، هو روعة مغزاه الأخلاقى .. ذلك أن أبطال الرواية الرئيسيين كانوا نماذج خالدة للحب غير المشروع ، الذى انتهى بأصحابه إلى أسوأ نهاية ! .. أما الرواية ذاتها فهى الصورة المسرحية للعدالة المثالية ، للعقوبة العادلة التى تتبع العواطف المحرمة .. ولئن كان أبطالها قد ارتكبوا إثما يستحقون عليه عقوبتهم ، إلا أنهم ليسوا على درجة من الشر تفقدهم عطفنا .. فهم خطاة مسلوبو الإرادة ، أكثر منهم أنذالا مستهترين ! ..

● ومؤلف هذه المسرحية هو الشاعر الإنجليزى القديم « جون درايدن » ، الذى عاش بين عامى ١٦٣١ و ١٧٠٠ وقد كان جده وعمه يحملان أرفع ألقاب الدولة ، وترك له أبوه ضيعة تغنيه عن الانشغال بمطالب العيش والحياة المادية ، فاستطاع أن يكرس وقته لتأمل قيم الحياة المعنوية .. كان يقضى الصباح فى الكتابة والتأليف ، وينفق العصر بين

أسرته وأفراد بيته ، ثم يمضى فى المساء إلى مشرب « ويلز » الذى كان ملتقى أدباء العاصمة الإنجليزية ، حيث كان الشعراء الشبان والطلبة والفنانون ينظرون إليه باعتباره معجزة عصره ! وكان هو ، أيضا ، يعتبر نفسه أنبغ مفكرى زمانه ، فكان ينشق السعوط وينثر عباراته اللاذعة بخيلاء ولهجة متعالية .. وضاعف من خيالاته أنه صار ذا حظوة عند الملك والأمراء ، فكان يخصهم بعبارات إهداء كتبه الجديدة ومقدماتها ، ويتلقى مقابل كل مقدمة كيسا من ذهب المعز !

. وقد وضع درايدن سبعا وعشرين مسرحية ، ما بين مأساة وكوميديا ورواية ساخرة ورمزية .. ولكن بعض هذه المسرحيات لقي فشلا ذريعا ، وبعضها منع تمثيله على المسرح لعدم لياقته من حيث الآداب العامة .. وبعضها نجح نجاحا هائلا ..

ويجمع النقاد على أن مسرحيات درايدن تفوق مسرحيات شكسبير من ناحية الفن والصناعة ، لكنها تقل عنها من ناحية الشعر والفلسفة ، فيما عدا مسرحية « فى سبيل الحب » التى نقدمها اليوم ، فقد بلغ فيها الذروة ! (فى الأصل الشعرى الإنجليزية الكامل بطبيعة الحال) .

شخصيات الرواية

Marc Antony	مارك أنطوني
Cleopatra	كليوباترة
Ventidius	فتندياس (قائد جيش أنطوني)
Charmian	شارميان (وصيفة كليوباترة)
Alexas	أليكساس (خصى كليوباترة)
Octavia	أوكتافيا (زوجة أنطوني)
Dolabella	دولابيللا (صديق لأنطوني)

١

● عندما ترفع الستار نجد أنطوني متورطا في حبه لكليوباترة ، تورط الحشرة في نسيج العنكبوت !... ونعلم من الحوار الذى يدور أن معركة « أكتيوم » قد انتهت بهزيمته على يد خصمه « أوكتافيوس قيصر » الذى يقل عنه ذكاء وبراعة ، وإن فاقه فى المran العملى .. فانزوى أنطوني فى معبد (إيزيس) فريسة لليأس المرير ، وقد أخذ يسائل قائده « فتندياس » فى حسرة :

أنطوني : لماذا رفعتنى الأقدار إلى السماوات ، وجعلتنى أتوهج

كالشهب ، وأضىء حيثما ذهبت .. حتى استنفدت نارى
وقودها فسقطت من عليائى ، كى يطأنى قيصر ؟!

● لكن القائد فنتدياس يحاول أن يحىي فى زعيمه شجاعته الروحية

القديمة ، فيهب به :

فنتدياس : انهض ، انهض بحق شرفك .. إن ائنتى عشرة فرقة

تنتظرك .. إنهم يرجونك أن تسرع كى تتولى قيادتهم !

● نعم إن فى استطاعة أنطونى أن ينهض من كبوته مرة أخرى

ويرتفع إلى ذروة المجد والشهرة ، والجنود على استعداد لأن يتبعوه ..

ولكن بشرط واحد : أن ينبذ كليوباترة !.. بدونها يستطيع أن يصبح

إمبراطور روما . أما إذا أصر على البقاء معها فإنه .. يفقد كل شيء !

أنطونى : لا أريد أن أسمع كلمة سوء فى كليوباترة !.. إنها تساوى

فى نظرى أكثر من جميع الممالك التى أستطيع أن أغزوها !

● لكن فنتدياس يوبخه ويلومه .. ثم يتوسل إليه .. ويناقشه ..

ويجادله .. حتى يتوصل أخيرا إلى جعل العاشق يخجل من نفسه ، ويعت

فى أنطونى من جديد روح المحارب الباسل .

أنطونى : هيا بنا يا فنتدياس .. لشد ما أنا مشتاق إلى مواجهة العدو

مرة أخرى ، وإلى أن أسير فى مقدمة جنودى وأحص

حصاد « الميدان » النبيل !

● فإذا كان الفصل الثانى فقد علمت كليوباترة أن أنطونى يوشك أن يهجرها ، فتنازعها الغيظ واليأس ، حتى لقد ذهبت خادمتها « شارميان » إليه تستعطفه .. ولكن دون جدوى !
كليوباترة : ماذا أفعل ؟ وإلى من ألتجئ ؟ لقد تغلب فتندياس ..
وسوف يخذلنى أنطونى !

شارميان : لقد ذهبت إليه فوجدته محاطا بـتائيل الجنود الحديدية الخرساء الجامدة .. وكان يبدو عليه العزم والتصميم ، لكنه مع ذلك حين رآنى جفف دمعة كانت توشك أن تنحدر من عينيه ..

كليوباترة : إذن فقد بكى ؟ وهل وجدنى أستحق دمعة ؟
شارميان : ورغم ذلك فقد ردنى خائبة ، وأبى أن يراك !
● وتبدو القضية فى نظر كليوباترة خاسرة ، ميؤوسا منها ، لكنها لا تبدو كذلك فى اعتقاد « أليكساس » خصى جلالتها ، الذى يرى أن من يفر من مواجهة المعركة هو الضعيف ! .. وهكذا يدبر أليكساس محاولة أخرى للتلاعب بعواطف أنطونى وإيقاد شعله حبه لكليوباترة من جديد :
أليكساس : ها أنذا أسمع أبواق جيشه تقترب — فإنه سيمر من هنا —
فهيا أفسحن لى الطريق كى أجرب معه حيلتى الأخيرة !

● وحين يمر أنطوني أمام القصر في مقدمة جيشه ، يوقفه أليكساس
كى يقدم إليه هدية من .. كليوباترة !
أليكساس : مولاتى كانت تود لو قدمت لك روحها ، لولا أنك
أخذت هذه الروح من قبل .. لذلك فهى ترجوك أن تزين
معصمك بهذا السوار المصنوع من الياقوت ، رمز قلبها
الجريح ..

أنطوني : (وهو يحاول تثبيت السوار حول معصمه) نحن
العسكريون لا نجيد استخدام أدوات الترف .. فهلا
أعنتنى على تثبيت هذا السوار ؟

أليكساس : الحق يا مولاي أننا نحن الندماء لا نجيد بدورنا هذه
الأمر .. لا نجيد ذلك غير الأيدى الناعمة وحدها ..
وخاصة يد تلك التى أرسلت السوار !

● وهكذا يهد « أليكساس » الماكر للقاء آخر بين مولاته وحبیبها ،
الأمر الذى يثير حفيظة القائد فتدياس وغيظه .. !
ويتم لقاء العاشقين :

أنطوني : ها قد التقينا يا سيدتى ..

كليوباترة : وهل يجب أن نفترق ؟

أنطوني : يجب ..

كليوباترة : ومن الذى يوجهه ؟

أنطوني : توجهه أقدارنا القاسية ذاتها !

كليوباترة : نحن الذين نصنع أقدارنا ..

أنطولى : ولقد صنعناها بالفعل ، حين أحببنا كلانا الآخر حبا
دمرنا معا ..

● ورغم كل توسلات كليوباترة واستعطافها ، ودموعها يصمم
أنطولى على الرحيل !.. لكنها تصمم بدورها على استبقائه ، فتعمد إلى
استخدام سلاحها الأخير الفعال : تريه خطابا تلقته حديثا من روما !
أنطولى : بحق هرقل .. إنه خط أوكتافيوس !.. انظر ، انظريا
فتدياس .. إنه يعرض عليها استقلال مصر ، وضم سوريا
إليها ، كهدية منه فى مقابل أن تتخلى عنى ، وتضم
جيوشها إلى جيوشه لمحاربتى !

أليكساس : (يخاطب نفسه) : إنه يضعف .. سوف نتصر !
فتدياس : (مستحشا مولاه) هلا عدت إلى وطنك ؟ إن شرفك ،
و ثروتك ومجده .. فى الميزان !

أنطولى : بل إن الثقة .. والشرف .. والفضيلة .. وكل ما هو طيب
يمنعنى من أن أهجر تلك التى تضع حبى فوق الممالك
والتيجان ، وتأتى التفريط فيه رغم الوعد والوعيد !..
فامنحى أيتها الآلهة حبيبك الغرير ، قيصرك ، هذه اللعبة
— هذا النموذج الصغير للكرة الأرضية — كى يلعب
ويتسلل به .. وقولى له إننى لن أراضى بأقل من كليوباترة !
كليوباترة : إنها ملك يمينك !

فتدياس : (ساخطا) أواه من النساء .. النساء .. النساء ! إن الآلهة
جميعا لا تملك للإنسان نفعا بقدر ما يملكن هن له من ضرر

● ويقرر قرار أنطوني في النهاية على البقاء في مصر !.. ثم يخوض غمار معركة جديدة ضد جيش أوكتافيوس فينتصر عليه .. لكن البطل الظافر في الميدان يعود فيصير عبدا خاضعا لغرامه المشبوب بكليوباترة ، في الوقت الذي يظل فيه غريمه أوكتافيوس يهدد مركزه في مصر بواسطة قواته المتفوقة في العدد والعدة !

وهكذا يزداد قلق القائد المسن المخلص — الجنرال « فتدياس » — على زعيمه أنطوني ، وشوقه إلى إنقاذه من حتفه الذي يسعى إليه !.. وينضم إليه في جهاده حليفان قويان : هما « دولابيللا » صديق أنطوني القديم ، و « أوكتافيا » زوجة أنطوني !

أما دولابيللا فهو ضابط في الجيش الروماني الذي غزا مصر في غمار الحرب ضد أنطوني .. وأما أوكتافيا ، زوجة أنطوني ، فهي شقيقة القيصر أوكتافيوس — غريمه ! — وقد جاءت إلى مصر ومعها ابنتها الصغيرتان كي تبذل محاولة أخيرة « شخصية » لإثناء زوجها أنطوني عن عزمه ، وعن غيه !.. وقد فوض كلا من دولابيللا وأوكتافيا في أن يعرض على الروماني الثائر شروط هدنة شريفة ، مؤداه أن القيصر أوكتافيوس على أتم استعداد لأن يعقد مع أنطوني صلحا دائما مقابل ثمن واحد : أن يهجر كليوباترة ! ونشهد موقف أوكتافيا من أنطوني فإذا هو موقف الزوجة المحبة ،

نفسه في حرق ذاته موقف المرأة الرومانية الأبية :

وكفاي : إن الشروط التي جئت بها تكفل لك الاحتفاظ بشرفك
مصونا ، بحيث تستطيع أن تقبلها دون أن يحمر وجهك
خجلا أو يلحقك أى عار .. سأقول لأخى إننا قد
تراضينا ، على أساس أن يسحب هو جيوشه ، وترحف
أنت بجيوشك كي تحكم الشرق ! .. أما أنا فيمكنك أن
تلقى بي إلى البر في أثينا ، ومنها أعود وحيدة إلى وطني ..
وثق أنتى لن أشكو أو أتدمر .. يكفيني أن أحفظ بقلب
زوجتك ، وأنقذك من متاعبك ..

● ويتأثر أنطوني من هذه الكلمات أشد التأثر .. لكنه يتساءل في

خبره

صفوف : ولكن ماذا يكون مصير كليوباترة ؟؟ هل يجب أن تنبذ ؟
إن واجب الشفقة يقف في صفك ، ولكن ألا يقف أيضا
في صف كليوباترة ؟

فستدريس : العدل والشفقة في صف أو كفايا .. أما كليوباترة فليس
في صفها واحد منهما !

● وفوق ذلك فهناك طفلتا أنطوني ، اللتان يجب أن يحسب لهما
حس .. اللتان تناشدهما أمهما : « اقتربا منه يا أطفالي .. اركعا أمامه
صفحا بأيديكما الصغيرة .. تحدثا معه .. تعلقي بذراعيه يا
« حرايتنا » .. وأنت يا « أنتونيا » احتضنيه من خصره .. فإذا أشاح
عكسا . أو ألقى بكما على الرصيف ، فيجب أن تحتملا ذلك

(أوديب الملك)

صابرتين .. فإنكما تتمان إليّ .. وأنا قد خلقت كي أتعذب ! » .
ويتج هذا الاستعطاف الأخير أثره المرجو ، فيقبل أنطوني أن يترك مصر -
وكليوباترة !- ويخاطب أسرته في تأثر : « لقد غلبت على أمرى ..
خذي يا أوكتافيا .. خذوني يا أطفالي .. قاسموني حياتي منذ الآن ،
حلوها ومرها ! » .

ولكن كليوباترة ليست مستعدة لأن تسلم سلاحها وتفرد في حببها
بسهولة .. ومن ثم يدفعها بأسها إلى أن تسعى إلى أوكتافيا بنفسها ..
وتلتقي الغريمتان :

أوكتافيا : لست في حاجة إلى أن أسأل هل أنت كليوباترة .. فإن
عربتك الفاخرة ..

كليوباترة : (مقاطعة) توحى بأني ملكة ؟ .. كذلك أنا في غير
حاجة إلى السؤال عمن تكونين ..

أوكتافيا : رومانية !.. الصفة التي تستطيع أن تصنع الملكة .. وأن
تخلعها !

● وتتلو ذلك مبارزة لفظية حامية بين المرأتين ، تدافع فيها أوكتافيا
بحرارة عن كرامتها ، وكليوباترة عن غرامها :

أوكتافيا : من دمر أنطوني ، غير كليوباترة .. ؟! من حط من شأنه
في روما ، غير كليوباترة .. ؟! من جعله محترقا فيما وراء
البحار ، غير كليوباترة .. ؟! من جعل أطفاله أيتاما
وجعلني أرملة تعسة .. ؟! .. كليوباترة وحدها !

كليوباترة : لكن التي تحبه أكثر هي كليوباترة ! من أجل حبي

لأنطوني، فقدت مجدى .. ولوثت شرف أسرتى المالكة ..
حتى حياقي أفقدها عن طيب خاطر .. من أجل الذى
أحبه !

أوكتافيا : إذا كان الأمر كذلك .. فليكن لك ما تريد !
● ونهذه « القنبلة » الأخيرة تغادر أوكتافيا المكان ، تاركة كليوباترة
تندب حظها التعس .. ويبدو كأن الزوجة قد ربحت المعركة ضد
العشيقة !

٤

● وفى هذه المرة يخشى أنطوني أن يعرض نفسه لمحنة اللقاء الأخير
مع كليوباترة ، خشية أن يتكرر استسلامه لعاطفته .. فيرسل نيابة عنه
صديقه دولاييلا كى .. يودعها !
ويصغى دولاييلا ، بحزن مصطنع ، لأنطوني وهو يوصيه بأن يكون
حازما — ورقيقا فى آن معا ! — حين يبلغ رسالة الوداع إلى كليوباترة !
أى طفل ساذج هذا النبيل أنطوني ؟ ولكن هل الرجال إلا أطفالا قد ازداد
نموهم ؟ ويرثى دولاييلا لحطام « الرجل الذى كان يوما جنديا جبارا » ..
لكنه يتمنى لو كان هو فى مكانه ، حتى يدمره « الحب » مثله !
والواقع أن دولاييلا نفسه كان قد وقع فى هوى كليوباترة .. التى
تحاول أن تلعب ورقها الأخيرة اليائسة مع أنطوني عن طريق إثارة غيرته ،
بالتظاهر بأنها قد وقعت بدورها فى هوى دولاييلا !

ويتعمد القائد الشيخ فتندياس أن يسترق السمع إلى الحوار الحار الذى
يجرى بين كليوباترة ودولايللا .. فيقع هو بدوره — ولكن للحظة عابرة
فقط — أسير الإعجاب بها !.. فلا يملك إلا أن يحدث نفسه : « حتى أنا
الذى أكرهها أحس نشوة خبيثة وأنا أتأمل حسنها الباهر .. الذى وأنا
ألغته .. أشتيه ! » .

لكن إعجابه هذا يزيده حرصا على أن ينقذ أنطوني من تلك المرأة بأى
ثمن !.. ومن هنا ينقل نبأ خيانة كليوباترة — الظاهرية — له مع
دولايللا ، ثم يستطرد : « إنها غير جديرة بحبك .. ودولايللا غير جدير
بثقتك .. فاطر كهما كليهما وبادر بالعودة إلى روما .. »

أنطوني : أنت تتهمها ؟ كليوباترتى ؟
فتندياس : كليوباترتك ، كليوباترة دولايللا .. كليوباترة كل
رجل !

● وتحت وقع هذه الكلمات تحتاج كيان أنطوني جائحة من الغيرة
المرّة .. لكن هذه الغيرة تنتج عكس ما قصدت إليه كليوباترة تماما ! فإن
أنطوني يتهمها بخيانتها ، مهددا ، متوعدا .. وعينا تحاول الاحتجاج فى
حرارة بأنها إنما كانت تمثل مشهدا مصنوعا ، بتأثير انزعاجها على فقدته
وشوقها إلى استعادته ، فإنه يدفعها عنه فى عنف صائحا :

أنطوني : اغربى عن وجهى إلى الأبد !
كليوباترة : كيف ؟ إلى الأبد ؟ لست أستطيع أن أبعد عنك لحظة
واحدة ، فكيف إذن .. إلى الأبد ؟

● إذن لم يبق أمامها غير أن تموت !.. « وسوف أموت مسرورة بأنك
كنت يوما ملك يمينى »

● ويشير اعتزام كليوباترة الانتحار ذعر خصيها « ألكساس » فيبذل محاولة أخيرة يائسة كي يوفق بيت الحبيين المتخاصمين .. ومن ثم يزعم لأنطوني أن كليوباترة قد قتلت نفسها فعلا ، آملا من وراء هذا الزعم أن يغمر الفرح قلب أنطوني حين يجدها حية ، فيغفر لها كل شيء .. وينسى كل شيء !

لكن خلق أنطوني العنيف يخلف الظنون مرة أخرى .. وهكذا بدلا من أن يحاول التثبت من صدق رواية ألكساس ، يقرر في اندفاع أن يضع حدا لحياته هو أيضا :

أنطوني : لقد سئمت الحياة .. وبت أتوق إلى تحرير نفسي من رقها !

فتندياس : افعل ذلك بشجاعة .. بمحاربة قيصر !
 أنطوني : بشجاعة .. ولكن ليس بالقتال والحرب .. أو اه يا فتندياس ، في سبيل من أكافح الآن وقد ماتت مليكتي !؟ دع قيصر يستولى على الدنيا بأسرها ، فما عادت سوى دائرة فارغة منذ اختفت جوهرتها ، التي جعلت لنضالي قيمة .. إن شعلتي قد انطفأت .. فلا رقدن في باطن الأرض ، وأكف عن الحركة !

● ويسقط عامدا فوق حد سيفه ! فيجرح نفسه جرحا مميتا ، لكن

الموت السريع يفر منه !

وفيما هو راقد يتأرجح بين الحياة والموت .. تدخل كليوباترة !
أنطوني : أحية أنت ما تزالين يا مليكتي ؟ أم أنني مت وأنت أول
ملك كريم رحيم يلقاني في السماء ؟

كليوباترة : بل ما زلت حية .. وأنت يا حبيبي أنطوني ؟
أنطوني : إني مثل رجل يعتزم سفرا عاجلا : كل متاعه قد حزم
وأعد .. ولكنه في عجلته نسي جوهرة واحدة عزيزة
عليه ، فعاد من أجلها .. هكذا أنا ، من أجلك قد عدت !
كليوباترة : خذني يا حبيبي ، ولنرحل معا !



● وتأمر وصيفتها بوضع جسم أنطوني المحتضر فوق العرش .. ثم
تجلس بجواره ، وتضع الحية الرقطاء على ذراعها العارية !
ويدخل عدد من الكهنة والجنود على عجل .. لقد أتوا لينقذوا الحبيين
الملكيين من انتحارهما المرسوم ، لكنهم جاءوا متأخرين .. فوجدوهما
فوق عرش الحياة ، وقد وحد بينهما الموت !

واحد من الكهنة (منشدا) : أنظروا كيف يتعانق العاشقان وهما
يودعان الحياة ..

كما لو كانا يرسمان مثلاً يحتذى لنصف البشرية !
شبح الابتسامة الباقى على شففتها يظهر بوضوح أنها ماتت — مغتبطة
— من أجل ذاك الذى عاشت معه ، وذهبت كى تؤنس وحدته فى عالم
آخر !

فارقدا .. أيها الزوجان المباركان .. آمنين من مقادير البشرية ، لعصور
طويلة آتية ..

بينما جميع أعاصير القدر تطير فوق قبركما ..
والمجد إلى أبد الآبدين سوف يروى أنه :
ما من عاشقين عاشا هكذا عظيمين .. وماتا هكذا حبيبين !

ستار

كلمة أنصاف

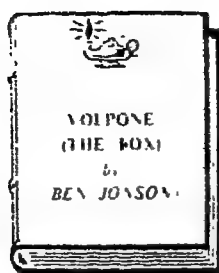
كليوباترة .. هل كانت من أعف نساء عصرها ؟

● والآن ، وقد فرغت من قراءة قصتي كليوباترة : كما رواها التاريخ ، وكما تخيلها الشعراء .. يحسن أن أخص لك — إتماما للفائدة — بحثا نشره منذ أسبوعين فقط عالمنا الأثري الكبير الأستاذ سليم حسن ، وفيه أنصف ذكرى كليوباترة من كل ما ألصقه بها مؤرخو الرومان من تهمة خلقية ، (مدفوعين بحقدهم عليها من أجل نفوذها القوي على بطليمم العظمين « يوليوس قيصر » و « أنطوني ») .. وقد أثبت الباحث الكبير في بحثه الحقائق الآتية ، نوردتها بنصها الحرفي كما نشرها :

● تدل الآثار المصرية على أن قيصر قد « تزوج » من كليوباترة حسب التقاليد الفرعونية .. وبعد ولادة ابنهما قيصر ، تبعت كليوباترة « زوجها » قيصر إلى روما ، حيث مكثت إلى أن قتل عام ٤٤ ق . م .

● على أثر لقاء كليوباترة بأنطوني — أحد خلفاء قيصر — في سفيتها الفاخرة بمياه طرسوس ، وقع أنطوني في هواها ، ولم يلبث إلا قليلا حتى أصبح لها زوجا شرعيا . وبذلك نجحت كليوباترة في درء الخطر عن الكنانة . وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة « أنطوني وكليوباترة » ، تلك القصة العالمية التي غطت على قصتها مع قيصر ، وقد ختمت بموتها في أحضان الحب الزوجي الطاهر عام ٣٠ ق . م ، هزيمتهما في موقعة « أكتيوم » . ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية أن اسم كليوباترة قد قرن باسم أي رجل آخر غير اسمي قيصر وأنطوني ، وقد تزوجت بهما على التوالي كما ذكرنا ، وعاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصه حتى مماتها ..

- والأمر الذى يسترعى النظر فى حياة كليوباترة أنها قبل أن تتصل بقيصر ، الأمر الذى أكسبها عداوة الرومان ، لم تسمع عنها كلمة سوء عى شرفها . وحتى على أثر مأساة قيصر وفرارها إلى مصر لم تجد ألسنة أعدائها كلمة نائية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة بين هربها ومقابلتها لأنطونى ..
- وفى الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أما رؤوما لأطفالها الأربعة ، الذين أنجبهم من قيصر وأنطونى . ويعتبر المؤرخون انتحارها نهاية مشرفة نالت الإعجاب التام حتى من أوكتافيوس نفسه ، ألد أعدائها ، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصية أوصت بها فشيوعها بكل مراسم الملك إلى جوار زوجها أنطونى ..
- وليس لدينا وصف مفصل عن صورتها ، ولكن إذا قسناها على بنات جنسها من البطالسة فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء ، زرقاء العينين ، ذهنية الشعر ..
- فإذا وضعنا كليوباترة فى كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فإنها تظهر أمامنا المثل الأعلى فى الطهر والعفاف ، بل تكون اسما على مسمى ، فمعنى اسم كليوباترة « فخر جنسها » !



التعليل (فولپون)

كوميديا للكاتب الانجليزي "بن جونسون"

شخصيات الرواية

Volpone	فولبون : ثرى بخل متقدم فى السن
Mosca	موسكا : خادمه الخاص وشريكه فى مؤامراته
Volpone	فولتور : محام من أصدقاء فولبون
Corbaccio	كورباشيو : ثرى آخر مسن من أصدقاء فولبون
Corvino	كورفينو : تاجر من أصدقاء فولبون
Celia	سيليا : زوجة كورفينو
Bonario	بوناريو : ابن كورباشيو

زمان الرواية : القرن السابع عشر

مكان الرواية : مدينة البندقية (فينيسيا) بإيطاليا

المؤلف

(١٥٧٣ — ١٦٣٧)

لعل « بن جونسون » هو أقدر كتاب المسرح في عصر الملكة « إليزابيث » — الأولى — وإن لم يتلق تعليما يذكر ، فقد بدأ حياته « بناء » .. لكنه كان يجمع المعرفة في أوقات فراغه من حيث وجد إليها سبيلا !

وفي سن التاسعة عشرة تزوج من امرأة سليطة اللسان ، فضيلتها الوحيدة وفاؤها له ، فقضى حياته معها في شجار مستمر !
وقد بدأ « بن » يمارس هواية الكتابة للمسرح في سن مبكرة .. فأخرج وهو في الخامسة والعشرين روايته الكوميديّة الأولى ، التي أطلق عليها : « كل إنسان في ساعات مرجه » ، وقد قام « شكسبير » بتمثيل أحد أدوارها ، وكان وقتئذ ما يزال « ممثلا » مغمورا ، قبل أن يسطع نجمه ككاتب !

ثم دخل بن جونسون السجن ، على أثر مبارزة كاد يحكم عليه من جرائمها بالإعدام ..! وحين أطلق سراحه كتب كوميديا جديدة أطلق عليها « كل إنسان في ساعات غيظه » ..!
ثم حاول أن ينتقل من كتابة الكوميديات إلى كتابة المآسي ، فكتب

عددا منها .. وذات يوم قاده حبه للشغب إلى دخول السجن مرة أخرى ،
بعد أن كاد يفقد أنفه وأذنيه في الشجار !.. فلما أفرج عنه آخر الأمر عاد
إلى بيته ليجد أطفاله جميعا قد ماتوا !

وإزاء قسوة هذه المأساة زهد بن جونسون في كتابة المأسى فعاد إلى
كتابة الكوميديات ، فقدم منها في هذه المرة روائعه الثلاثة المشهورة :
فولبون (الثعلب) التى ألخصها لك فيما يلي ، و « الكيمياء » ،
و « الشيطان حمار » ، وكلها حافلة بالسخرية والمرح .. وعلى إثر ذلك
أنعم عليه بلقب « أستاذ فخري في الآداب » من جامعة أوكسفورد ..
وكاد ينعم عليه بلقب « سر » ، لولا أنه رفض هذا الإنعام !.. ثم فقد آخر
أطفاله ، فأصيب من جراء ذلك بنوبتى شلل قضت الأخيرة منهما على
حياته في سنة ١٦٣٧ ، وكان في الرابعة والستين ..

واليوم ، يرى زوار قبره هذه العبارة محفورة على القبر : « أيها العبقري
النادر .. بن جونسون ! » .

يرفع الستار عن الفصل الأول فإذا نحن في مدينة « البندقية » ، حيث يعيش « فولبون » .. وهو رجل بلا زوجة ، ولا والدين ، ولا أولاد .. عواطفه كلها مركزة في ماله ، أو « ذهبه » !.. ينظر إليه نظرة العابد إلى معبوده الأوحـد ، أو ملاكه الحارس !.. وفي سبيل زيادة رصيده منه يوما بعد يوم لا يتورع « فولبون » عن خداع جميع أصدقائه واحدا بعد الآخر ، موهما كلا منهم في كل مناسبة بأن صحته قد ساءت للغاية ، وأنه على وشك أن يموت ، بغية أن يطره أصدقاؤه بهداياهم الثمينة ، وكل منهم يطمع في أن يسترد ما بذله أضعافا مضاعفة حين تؤول إليه ثروة « فولبون » في القريب العاجل !

.. فلندخل إلى منزل « فولبون » ، ولنصغ إلى نقاشه مع خله الطفيلي « موسكا » الذي يشاركه في تدبير مؤامراته وآلاعيه :

فولبون : إن أصدقاؤى يطمروننى بالهدايا ، والجواهر ، والذهب .. آملين أن أموت في يوم قريب فتعود إليهم هداياهم عشرة أضعاف !.. وأنا أرحب بكل ما يقدمون ، متلاعبا بآمالهم ، مغتبطا بأن أستغل غفلتهم وسوء نواياهم !..

موسكا : إن حكمتك براءة مثل ذهبك !.. وحاشا لك أن تبدد ثروتك على ورثة جاحدين .. وإنما خير لك أن تنفقها على خادملك المتواضع موسكا !

● وهنا يسمع طرق على الباب ، فيخلع فولبون رداءه ويقفز إلى فراشه ثم يبدأ فى التأوه والأنين !.. إنه يمثل دائما دور المريض العاجز كلما أقبل واحد من أصدقائه العديدين الطامعين !

يدخل صديقه الخامى « فولتور » — أحد ورثته المنتظرين ! — حاملا معه آنية ثمينة من الذهب الخالص ، هدية لفولبون !

فولتور : لكم يؤسفنى يا سيدى أن أراك ما زلت ضعيفا .. فهلا قبلت منى هذا الطبق الأثرى المتواضع ، مع أطيب تمنياتى ؟!

فولبون : شكرالك يا فولتور .. أنت طيب للغاية (ويبدأ الماكر فى السعال ، كأنما أصيب بنوبة مفاجئة !) .

موسكا (وهو يعين سيده ويقف إلى جانبه) : إنه ينحدر بسرعة نحو القبر ، وأنت يا سيدى ورثته !

فولتور : هل سجل فى وصيته حقا أنى ورثته ؟

موسكا : وبلا شريك يا سيدى ، لقد سجل ذلك فى وصيته صباح اليوم .. وكنت أنا الذى أغريته بذلك ، لا تنس !

● ويسمع طرق جديد على الباب فيهرع فولتور إلى الخارج .. بينما

يدخل زائر آخر ، « وريث » ثان من ورثة المريض الثرى يدعى

« كورباشيو » !.. وكورباشيو يأمل — برغم تقدمه هو نفسه فى السن —

— أن يعمر بعد وفاة صديقه الكهل ، وأن يستمتع بثروته !..

كورباشيو (إلى موسكا) : كيف حال سيدك ؟

موسكا : سيئة جدا .. (أوديب الملك)

كورباشيو : هذا حسن .. وهل كتب وصيته ؟

موسكا : كلا يا سيدى .. ليس بعد .

كورباشيو : إليك إذن هذه الحقيبة من الذهب ، قد أحضرتها له .. !

(يأخذ موسكا الحقيبة ويقترح خطة يصير كورباشيو

بمقتضاها وريثا لفولبون) : وتتلخص الخطة فى أن يوصى

كورباشيو بثروته كلها لفولبون ، كى يوصى فولبون

بثروته كلها لكورباشيو !!

يعترض كورباشيو على الخطة فى البداية مستنكرا : « ماذا ؟ هل

أحرم ابنى من ثروتى ؟ » .. لكن موسكا يقنعه بأن هذا الحرمان سوف

يجعل فولبون — بدافع الشكران والاعتراف بالجميل — يوصى بدوره

بثروته كلها لصديقه السخى ! .. ثم يختم الخادم إيجاءه الماكر قائلا

لكورباشيو : « وعلى أى حال فأنت لن تخسر شيئا يا سيدى ولن تخاطر

بشيء ، فمن المؤكد أنك سوف تعيش بعده .. ! » .

وهكذا يقبل كورباشيو اقتراح الخادم الخبيث ، ويقول له :

« موسكا ، إلى أشكرك من صميم قلبى .. وحين يموت فولبون سوف

أكون لك نعم الوالد الذى يراك .. ! » .

وبعد أن يجرد نفسه من ثروته على هذا النحو ، يخرج من بيت فولبون

متحاملا على ساقيه المريضتين بالروماتيزم .. ولا يكاد يفعل حتى يقفز

فولبون من فراشه صحيحا معافى كما كان !

فولبون : يا لك من ماكر ذكى .. تعال ، دعنى أقبلك !

موسكا : عد إلى فراشك حالا ، فإنى أسمع طرقا على الباب !

● فيعود فولبون إلى فراشه وسعاله وتأوهاتة!.. في الوقت الذي يدخل فيه التاجر « كورفينو » ، وقد أحضر بدوره لفولبون هدية ثمينة من اللؤلؤ والماس!..

كورفينو (لموسكا) : كيف حاله الآن ؟

موسكا : إن ساعته قد حلت !

كورفينو : ماذا؟.. ألم يميت بعد ؟

موسكا : كلا ، لكنه في حكم الميت ..

● وبعد أن يقوم الزائر بالمظاهرة المألوفة تحية للمريض وإظهارا لعواطفه نحوه ، يهمس له موسكا مطالبا إياه بأن يفرح ويغبط « فليس يليق بوارث أن يغالى في الحزن . » .

كورفينو : وهل أنا وريث فولبون ؟

موسكا : ولا أحد غيرك يا سيدى!.. وقد فضلك على الباقيين تبعا لنصيحتى أنا ..

كورفينو : أنت يا موسكا أعز أصدقائى ، ولسوف تكون شريكى في الثروة!..



● ويذهب كورفينو ، فيجلس فولبون وموسكا يستعرضان محصول اليوم : آنية من الذهب .. لؤلؤة .. وماسة .. حقيبة ملاءى بالنقود الذهبية .. « ماذا ، إنها طريقة للثراء أنجمع من سرقة تحف الكنائس ! » .. ويعرب فولبون عن شوقه إلى الاحتفال بحظه الموافى ، بالرقص ، والابتسامات ، والقصف والجون ! .. فإن الثعلب العجوز ما يزال متعلقا بمتع الحياة ! .. بل إنه يريد من موسكا أن يجد له امرأة جميلة « لها وجه يأسر اللب ! » .

موسكا : إن زوجة « كورفينو » تتوافر فيها هذه الشروط .. بشرتها أنصع من الثلج ، وشفثاها تغريانك بأبدية من القبل !
فولبون : وكيف أستطيع أن أراها ؟
موسكا : هذا غير ميسور ، فهي في حزر حريز — مثل ذهبك ! — لا تخرج من البيت قط ، ولا تنسم الهواء إلا من النافذة .. !

فولبون : ولكن يجب أن أراها يا موسكا ..
موسكا : إذن فلتذهب متكرا ، لئلا يتعرف عليك أحد !
فولبون : متكرا ؟ .. حسنا .. هيا بنا .

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في مواجهة منزل كورفينو ، وقد تنكر فولبون في زى تاجر دجال يبيع الأدوية والعقاقير السحرية .. وتنكر موسكا في زى مساعدة .. فاعتلى الأول مقعدا خشبيا يقع أسفل نافذة كورفينو مباشرة وراح يروج لبضاعته ، ويعلن عن مرهم عجيب يشفى كل مرض أو علة تحت الشمس !

فولبون : إذا أردت أن تحيا سليما من كل مرض ، مستمتعا بالقوة والصحة اللتين تسران عشيقتك .. فاستعمل هذا المرهم وأنت تشفى من الألم والبؤس وكل مكروه !..

● ثم يعلن أنه سيقدم قارورة من المرهم السحري لأول شخص يلقي إليه بمنديله .. وعلاوة على القارورة سوف يهدي إلى الشخص المذكور شيئا أئمن من كل ذهب العالم !

وتثير كلماته فضول « سيليا » زوجة كورفينو ، فتطل من نافذتها وتلقى إليه بمنديله .. عندئذ ينحنى لها « فولبون » في احترام ويقدم إليها هديته الموعودة : علبة من « البودرة » تحفظ لها جمالها وشبابها على الدوام ، فتطل أشبه بالهة لا تشيخ قط !.. ثم يشرع الرجل في إطراء جمال سيليا ... ولكن كورفينو يصل في تلك اللحظة ويطرده بعيدا — دون أن يتعرف على شخصيته ! — فيعود فولبون إلى داره ثملا بفتنة المرأة ، عاجزا عن مقاومة شوقه إليها !

فولبون : لست أطيق الحياة إلا إذا أعنتنى يا موسكا على الخطوة
بتلك المرأة !.. خذ ذهبى وجواهرى ، وكل ما أملك ،
وأحضرها إلى هنا !

موسكا : سوف أبذل ما فى وسعى .. سأرحل فوراً للبحث عن
حيلة أحضرها بها .. فإذا نجحت ظفرت بالثراء والزهو
بمقدرتى !..

٣

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى بيت كورفينو ، وقد جعل صاحب
الدار يعنف زوجته ويؤنبها لأنها ألقت بالها إلى بائع العقاقير :
كورفينو : إنك قد وقفت وأصغيت بأذنيك الفضوليتين إلى غزل
أولئك المهرجين ودعاباتهم !..

سيليا : يا سيدى العزيز ، إنك تحرمنى من الخروج من باب
المنزل ، فهل تنوى أن تحرم على النظر من النافذة أيضا ؟
كورفينو : بكل تأكيد .. سوف أخمد أنفاس الفسق قبل أن
يستشرى ، وأعلق فى رقتك قفلا ثقيلا !.. (يسمع طرقا
على الباب) والآآن اذهبى ، ولا تدعى بصر إنسان يقع
على وجهك المجلل بالعار !

● تخرج سيليا من الغرفة فى الوقت الذى يدخل فيه موسكا ، خادم
فولبون ... إنه يحمل إلى كورفينو أنباء سيئة ، فإن صحة فولبون قد

تحسنت بفضل مرهم الدجال السحري ، الأمر الذى شجع الأطباء
فوصفوا للمريض علاجا تكميليا عجيبا : امرأة جميلة فياضة بالشباب
والحيوية ، كى تضيف عليه من شبابها شابا .. !

ثم يستطرد الخادم موسكا : « وفى سبيل هذه المهمة الكريمة انتدبت
أنا .. ولقد تطوع أحد الأطباء بتقديم ابنته للمريض ، بغية أن يحظى برضاه
قبل أن يكتب وصيته !!

ثم يناشد موسكا كورفينو بلهجة حارة :
موسكا : حل يا سيدى بينها وبينه إذا استطعت ، وإلا فقدت إرثك
الهاائل .. ! فهل تعرف امرأة من العاهرات ، أو حتى من
ذوى قرباك ، كى توصيها بأن تسرع إلى المريض قبل ابنة
الطبيب ، فتفسد علاج تلك و « تقتله » بعلاجها
هى ؟ .. فكر فى واحدة .. تذكر ، تذكر ، تذكر يا سيدى
بربك !

كورفينو : لقد اعتزمت أن أرسل زوجتى إليه .. فما من إنسان
يستطيع أن ينتزع الإرث من يدى بعد أن صار منى قاب
قوسين أو أدنى !

● ويؤكد موسكا لكورفينو أن ما من شيء يمكن أن يحول الآن
بينه وبين أن يغدو وارث فولبون الوحيد : « فى نكسته القادمة سوف
نتركه يموت .. سنجذب الوسادة من تحت رأسه ، فيموت من ضيق
التنفس ! » .

كورفينو : اذهب الآن إليه مسرعا وبشره بأنى سأحضر إليه زوجتى
... عسى أن تعين قبلاتها على إخماد أنفاسه !



٤

فإذا كان الفصل الرابع فقد ذهبت سيليا — مجبرة ، برغم إرادتها — إلى منزل فولبون ، بصحبة زوجها كورفينو ، كي ينفذا خطة موسكا !.. في الوقت الذى يكون فيه عند المريض زائر آخر هو « بوناريو » ابن كورباشيو .. لقد أخبره موسكا أن أباه يعتزم حرمانه من الميراث لصالح فولبون !.. ولكى يثبت اتهامه يعتمد موسكا على إخفاء الابن فى دولا ب ، كى يسمع بأذنيه دليل خيانة أبيه !.. وحين يصل كورفينو وزوجته سيليا يضطرب موسكا ويخشى افتضاح ألامعبيه وألامعبيه سيدة لكل من « الورثة » الطامعين فى الإرث !.. لكنه يعتمد على ذكائه لإنقاذ الموقف ، فيحدث بوناريو :

موسكا : لقد أرسل والدك يقول إنه سوف يتأخر بعض الوقت ، فإذا أردت أن تقضى فترة الانتظار فى غرفة المكتب التى

فى آخر هذا المر فستجد فيها ما يروقك من الكتب المسلية
التى تعين على قتل الوقت ..

واذ يتخلص من بوناريو على هذا النحو ، يستدير إلى كورفينو
وسيليا .

موسكا : لم أكن أتوقع قدومكما مبكرين هكذا ..
كورفينو : أردت أن أسبق الطبيب وابنته إلى الظفر بالحظوة لدى
سيدك !..

● وعندئذ يهنئ موسكا كورفينو على ذكائه وحسن تصرفه ، ثم
ينسحب الرجلان تاركين سيليا وحيدة مع فولبون !.. فتتظر الحساء
باشمئزاز إلى الشيخ المحتضر الرائد على الفراش .. ولكن فجأة يقفز المريض
من فراشه ويهرع إليها ، فتراجع مذعورة صارخة .. ويسمع بوناريو
الصرخة فيخف لنجدة المستغيثة .. وفى المرح الذى يسيطر على الموقف
يصاب موسكا بخدش من سيف بوناريو .. ثم يفر الأخير مع المرأة التى
أنقذها .. فى الوقت الذى يصل فيه أبوه كورباشيو .

كورباشيو : ماذا جرى ؟
موسكا : ابنك يا سيدى .. لقد وقف على نيتك بشأن تجريده من
الميراث — ولا أدرى من الذى أطلعه على الأمر — فجاء
كى يتجسس عليك وأقسم أن يقتلك !

كورباشيو : هذا التصرف يزيدنى إصرارا على تجريده من الإرث !..
● وفى هذه اللحظة يدخل فولتور فيستتج فوراً أن شيئاً غير
عادى يأخذ مجراه فى البيت .. وحين يطلب من موسكا إيضاحاً ، يومئ
إليه هذا كى يخلو به ليفضى إليه بحلية الأمر .. فإذا فعل قال له :

موسكا : لا تخش شيئا .. فإنك ما تزال الوريث الوحيد !
فولتور : إذن فما هذه المؤامرة الخاصة بوصية كورباشيو وحرمانه
ابنه من الميراث ؟
موسكا : إن غرضي الأوحدهو أن أكفل لك ميراثا مزدوجا ، من
ثروتي هذين الشيخين اللذين على عتبة الموت !
ثم يخرج الجميع فينفرد موسكا وفولبون :
فولبون : ماذا نفعل الآن ؟
موسكا : عسى أن تنصلح الأحوال ..
فولبون : إني أتوجس شرا .. وأحس برطوبة زناثة السجن تتراءى
لى فى أفق المستقبل !

٥

لكن زناثة السجن لا تكون من نصيب فولبون وموسكا .. بل من
نصيب بوناريو وسيليا .. فقد أبلغ السلطات عن الأول أبوه ، ووشى
بالثانية زوجها ، مدفوعين كليهما بطمعهما فى ثروة فولبون ..!
وتشاء المصادفات أن يكون المدعى العام الذى يتولى اتهام الشابين
المقبوض عليهما هو فولتور ، الذى يطمع بدوره فى ثروة فولبون ويغنى
إرضاءه بالانتقام له من المرأة التى استعصت عليه .. كيما يظل وريثه
الوحيد !... ومن ثم فهو يلقى ضد المتهمين — بوناريو وسيليا — قضية
زنا !.. ويصدق المحلفون رواية الاتهام ، فإن المتهمين لا يملكان شاهدا على
نقاء صلتهما غير ضميريهما .. بينما يتحالف ضدّهما — زورا — جميع

الشهود : كورباشيو ، الذى يبغى التخلص من معارضة ابنه فى وصيته ..
وكورفينو ، الذى يحقد على زوجته لأنها أبت الخضوع لشهوات المريض
الثرى وصرخت مستغيثة فأفسدت المؤامرة !.. ثم موسكا ، الذى يبغى
الانتقام من الشاين الذين أفسدا خطة سيده بشأن الاستثثار بثروة والد
الفتى ، والحظوة بالمرأة الفاتنة !..

ويصل فولبون — آخر شهود الإثبات — إلى قاعة المحكمة محمولا على
محفة ، وقد اتخذ هيئة المحتضر المشرف على الموت !

فولتور (مترافعا ضد المتهمين) : وهذا يا حضرات المحلفين هو الشيخ
القانى الذى يريد بوناريو أن يصوره فى صورة الرجل
المغتصب فتأملوا عينيه ، ويديه .. ثم احكموا : أهما

يدا رجل يقوى على أن ينهش نهدي امرأة ؟

كلا بالطبع !.. ويقتنع القضاة بأدلة الاتهام ، وبأن فولبون شيخ
عاجز محتضر ، ومن أجله يستحق الباغيان الآثمان أن يعاقبا .. ومن ثم
يحكمون على بوناريو وسيليا بالسجن ، ويشكرون فولتور على الخدمة
الكبرى التى أداها للعدالة بتقديمهما للمحاكمة !..

٦

فإذا كان الفصل الأخير فنحن فى منزل فولبون مرة أخرى .. حيث
نراه فرحا بالخدعة التى انطلت على القضاة ، إلى حد أنه يصرح لخادمه
موسكا بأنه قانع بهذه النتيجة أكثر مما لو كان قد حظى بالمرأة الحسنة !..
وإمعانا فى اللهو والمزاح يعمد البخيل إلى إعداد وصية مؤقتة يوصى فيها

بكل ثروته لخادمه موسكا ، ثم يعمل على نشر شائعة قوية تزعم أنه قد مات ..! وهو يغى من ذلك أن يرى بنفسه تأثير هذا النبأ على كل من أصدقائه المنافقين !

ولا يكاد هؤلاء الطامعون في الإرث : كورباشيو ، وكورفينو ، وفولتور ، يسمعون النبأ حتى يهرعون إلى بيت مورثهم كالطيور المندفعة إلى الشرك ! ويحتبئ فولبون في مكان يرقب منه موسكا وهو يتلو على ثلاثتهم وصية سيده المتوفى !

وتدهش الوصية ثلاثتهم ، ويثير غضبهم وغيظهم إيصاؤه بثروته لخادمه ..! لكن الخادم لا يأبه لهم ولا يعبا بغضبهم ، وإنما يعاملهم ويخاطبهم بكل احتقار :

موسكا : والآن اذهبوا ، أيها التعساء المتكالبون على المال ... وأقفلوا أفواهكم ، وإلا رويت مؤامراتكم لعامة الناس .. فلو نطقتم بحرف لأطلقت لساني من عقاله كي يشبعكم تشهيراً و « تشنيعاً » .. فعودوا إذن إلى بيوتكم والزموا عقر دوركم ... وموتوا بغيظكم !

لكن الأندال الثلاثة الذين خابت آمالهم يأبون التسليم لغريمهم دون قتال ..! ولا سيما فولتور ، الذي يصصر على أن يثأر من موسكا ولو وشى بنفسه هو في غمار انتقامه . ومن ثم فهو يتوجه إلى القضاة الذين أდანوا بوتاريو وسيليا كي يعترف لهم ببراءة الشابين ..!

وفي المحكمة يلتمش شمل جميع أطراف القضية ، بما فيهم موسكا بل وفولبون ، الذي تنكر في زى ضابط بوليس ..!

فولتور : يا حضرات القضاة .. لقد حبكت خيوط اتهامى لهذين الشابين بدافع الطمع ... لذلك يطالبني ضميري الآن

بالتعويض والتكفير ، والاعتراف بأسماء الأئمة الحقيقيين

.. إثم موسكا و ..

فولبون (ضابط البوليس) : (يتتحي بفولتور جانبا ويهمس له) صه ..

لقد تكلفني موسكا أن أصارحك بأن فولبون ما يزال حيا

.. وإنك ما تزال وارثه الوحيد !

فولتور (حائرا) : والآن ، ماذا أفعل ؟ ...

فولبون : اعدل عن روايتك .. قل إنك مريض ، وإنك لا تفقه شيئا

مما رويته الساعة .. !

● وإزاء ذلك يتكلف فولتور أنه أصيب بنوبة صرع .. ! وحين

يفيق منها يزعم أنه لا يعرف بماذا تفوه منذ برهة ... ويؤكد أنه لم يقصد

أن يدلي بأى اعتراف ، وليس لديه ما يقوله .. ثم يضيف إلى ذلك أن

موسكا برىء من كل إثم ، وأن فولبون لم يميت .. !

فولبون (إلى موسكا) : لقد حسبت أن كل شيء قد ضاع ، فإذا كل

شيء بخير .. فتعال يا موسكا . أخبرهم أنى ما زلت على

قيد الحياة !

● لكن موسكا ، الذى يملك فى يده الوصية المؤقتة التى ترك له فيها

سيده كل ثروته ، يأبى أن يطيع رب نعمته .. ويصر على أن فولبون قد

مات !

موسكا (يواجه المحكمة) : يا حضرات القضاة ، إن سيدى المحبوب

« فولبون » قد مات ، ولقد عدت توا من تشييع جنازته !

فولبون : بل إن فولبون ، أيها السادة الأماجد ، ما يزال حيا ! (ثم

ينزع أدوات تنكره) أنا فولبون ، وهذا خادemy الخائن

.. والآن أيها السادة ، ما دمنا جميعا حاضرين . فلنعد

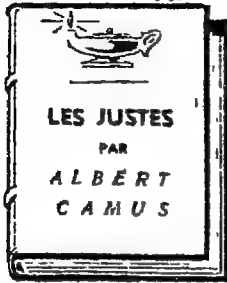
النظر في عقوبة كل من المتهمين ..!

● ويسود المحكمة جو من الهرج والمرج ، والدهشة ، والتعليقات ،
والاعتراافات ، ثم يتضح الموقف كله على حقيقته .. وعلى ضوءه يطلق
سراح بوناريو وسيليا ... ويحكم على موسكا بالسجن المؤبد .. وعلى
كورفينو بأن يقاد في زورق يحترق قنوات البندقية كلها وقد وضعت على
رأسه أذنا حمار !.. ويشطب اسم فولتور من جدول رجال القانون
 ويفصل من منصبه .. أما كورباشيو فيحكم عليه بالنفى المؤبد في أحد
الأديرة .. وأما فولبون — الثرى البخيل — فيزجج به في السجن وتصادر
ثروته لصالح الدولة ..!

ويتوجه رئيس المحكمة إلى الحاضرين بالقول :

— والآن ، وقد افضح أمر الجميع ، فسحقا لهم .. وليتعظ كل من
رأى عقابهم على رذائلهم البغيضة ، ويأخذ من قصتهم درسا لا ينسى :
إن الاشرار يتغذون كالوحوش حتى يسمنوا .. ثم يكون مصيرهم :
الذبح !

(ستار)



الابزار

مسرحية فلسفية، في إطار تاريخي
من روائع فقيه الفكر العالمي: البير كامو



هذه مسرحية رائعة ، من أدل أعمال « كامى » على عبقريته وفلسفته . إنها إهابة مؤثرة بضمير الإنسانية الذى اختلط فيه اليوم الخير والشر . إنها صرخة المثل الأعلى يتحدى هوان الواقع ، وصورة الشرف المطلق فى ثورته على فساد الدنيا . وباله من صراع حى عنيف هذا الذى يجتاح عقلك وقلبك بعد أن تشاهد فصول هذه المأساة الخمسة ، وتشاطر أبطالها مصيرهم .. ثم تتأمل فى الختام حكمة « شكسبير » العميقة التى اقتطفها المؤلف من « روميو وجوليت » ، وصدر بها نص مسرحيته عندما نشره سنة ١٩٥٠ ، أثناء تمثيلها للمرة الأولى على مسرح « هيبرتو » بباريس :

« آه الحب ! آه الحياة ! لا الحياة بل الحب فى الموت » .

١

● اتخذ « كامى » مادة مسرحيته من حادثة حقيقية وقعت فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، هى اغتيال « الدوق الأكبر » . ولا يعنينا مقدار انطباق هذه الرواية على التاريخ المعروف ، ولن نبحت هنا عن مبلغ الدقة التى تحررها الكاتب فى استعادة الملابس والشخصيات ، لأن « كامى » لا يسعى كما كان يسعى أدباء المسرح « الرومانتيك » فى القرن التاسع عشر إلى توخى الصدق فى تصوير الماضى وتكلف الأمانة فى بعث (أوديب الملك)

تفاصيله وألوانه وخصوصياته . فلقد انقضى ذلك العهد الذى كان يقنع فيه المسرح بأن يكون « وصفيا » أو « تاريخيا » ، وأصبح الكاتب حرا لا يتقيد بخدافير الواقع ، وإنما يستعير من كتلة الأحداث الغاشمة بعض المواقف التى تتيح له التعبير عن آرائه وإبراز غايته ، ومجرد إطار يصب فيه مناقشاته معنا ، على ألسنة أبطال قد يخلقهم خلقا دون الاعتماد على سند مأثور .

وترتفع الستارة عن مقر الثوار الذين دبروا تلك المؤامرة . ولا نرى أمامنا — والصمت يخيم على المكان — سوى رئيس هذه الجمعية السرية . « بوريس أنينكوف » والمجاهدة « دورا » ، ينتظران ، جامدين . وتهم « دورا » بالكلام ، إلا أن « أنينكوف » يومئ إليها بأن تسكت ، وهو يصيخ إلى وقع أقدام تقترب من الباب . ونسمع على الباب طريقة ثم طرقتين ، وهى الإشارة التى اصطلح عليها أعضاء الجمعية . ويفتح الرئيس فيرحب بالفتى القادم ويعانقه ويدخله .

إنه « ستيبان » ، الذى اعتقلته الحكومة القيصرية منذ ثلاث سنوات ، غير أنه استطاع الفرار من منفاه إلى سويسرا ، وحضر اليوم فى الموعد الذى أنبأ به رفاقه . لقد أقبل من بلد حر ولكنه لم ينعم فيه بحياة الحرية ، بل يقول :

— إنه منفى آخر ، فالحرية منفى مادام على الأرض إنسان واحد مستعبد . لقد كنت هناك طليقا ، ولكنى لم أمسك عن التفكير فى روسيا وفى عبيدها .

وهذا كلام رجل مثالى . غير أن « ستيان » ساخط ناغم ، يلتمس القيام بعمل فعال ، ويتلهف إلى قتل الطاغية ، ويسأل عن الخطة الموضوعه ، ويطالب بأن تعهد إليه هذه اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى بإلقاء القنبلة على الدوق الأكبر « سيرج » ، لأنه يريد أن يشفى غلته ويثأر لنفسه . وبعد نقاش مقنع ، يخضع — على الرغم منه — لأمر رئيس المنظمة ، الذى كان قد كلف بإلقاء القنبلة عضوا سواه ، يدعونه « يانك » ويلقبونه بالشاعر ، واسمه الكامل « ايفان كاليبايف » .

ويحضر « فوانوف » ، وهو المكلف بإلقاء القنبلة الثانية ، فيحى « ستيان » فرحا بعودته ، ويعرض على الرئيس رسما دقيقا يبين الطريق الذى سوف تسير فيه مركبة « الدوق الأكبر » من القصر إلى المسرح ، وهو طريق يمر بمركز اللجنة هذا . هل تم إذن تقدير كل شيء ؟ ويسأله « ستيان » :

— والجواسيس ؟

— كثيرون .

— هل يخيفونك ؟

— لست أخاف شيئا ، ولكنى أضيق بهم لأننى لم أعود الكذب .

— إن الجميع يكذبون ، ويجب عليك أن تجيد الكذب .

— ليس ذلك بالشىء السهل . حينما كنت طالبا ، كان زملائى يهزأون

بى لفرط صراحتى ، وانتهى الأمر بفصلى من الجامعة .

— لماذا ؟

— فى محاضرة التاريخ ، سألتى الأستاذ كيف بنى « بطرس الأكبر »
مدينة « بطرسبرج » ، فأجبتة : « بالدماء والسياط » ... وبعد أن
طردونى أدركت أنه لا يكفى أن نفضح الظلم بألستنا ، بل علينا أن
نضحى بحياتنا فى مكافحته . وإنى اليوم لسعيد .

— غير أنك تكذب .

— إنى أكذب لأضل العيون ، ولكنى لن أكذب منذ أن ألقى القنبلة .
ويطرق الباب طرقتين ثم طرقة — بترتيب معكوس ، فهكذا يروق لـ
« يانك » أن يتصرف فى الاصطلاح وأن يداعب رفاقه — فتنتطق
« دورا » لتفتح له الباب ، ثم يدخل متأبطا ذراعها . وتقدم إليه
« ستيان » ، وتجلس بجواره قبالة الآخرين .

ومن حديث هذا الفتى الرقيق نفهم مثاليته الخالصة العالية ، وهى
تسمو على مثالية « ستيان » التى يشوبها الحنق والبغض . إنه مبتهج
لاقتراب اليوم الذى يعدم فيه بيده « الدوق الأكبر » ، بل ويتوق إلى
ضرب القيصر ذاته . لقد أنفق شهرين يتنكر فى أساليب الباعة
المتجولين ، وبلغ من إتقانه محاكاةهم أن رفاقه زعموا أنه سوف يبيع جياذ
مركبة « الدوق الأكبر » بعد أن يصصره !.. ويأخذ عليه « ستيان »
إسرافه فى التندر والأصالة ، وإنشاده أبياتا من شعره العاطفى الأنيق ،
وعزمه — إذا خانت يده — على أن يهلك « الدوق الأكبر » بطريقة
مضمونة هى أن يلقى بنفسه تحت أقدام الجياذ ، أسوة باليابانيين الذين
يتحرون ولا يستسلمون . وفى ذلك يعارضه « ستيان » قائلا له من
أقصى الغرفة :

— إقدامك على الانتحار دليل على الاعتزاز بنفسك ، وليس للثائر الحقيقي أن يحب نفسه .

— الثائر الحقيقي ؟ لماذا تشك في إخلاصى ؟ هل أنا أسأت إليك فتخاطبنى بهذه اللهجة ؟

— إنى لا أحب أولئك الذين يلحقون بالثوار بحثا عن تسلية .

ويتدخل الرئيس لفض النزاع بينهما ، فيقول « ستيان » :

— أجل إننى عنيف . ولكن البغض عندى ليس لعبا وهوا . وما اجتمعنا هنا لتبادل علامات الإعجاب بأنفسنا ، بل لنفعل في التدبير ونصيب المرمى .

ويعاتبه « كالييف » — يانك — فى رفق :

— لماذا تهيننى ؟ من الذى قال لك إننى كنت أشكو السّامة والملل خارج المنظمة ؟ إنما أنا أحب الحياة يا أخى ، ولقد التحقت بالثورة لأننى أحب الحياة .

— أما أنا فلا أحب الحياة ، بل أحب العدالة التى هى فوق الحياة .

— كل امرئ يخدم العدالة على قدر ما يستطيع . وينبغى أن نتقبل اختلاف طبائعنا ، وأن يحب بعضنا بعضا .

— لا يمكننا ذلك .

— فماذا تفعل إذن بيننا ؟

— لقد جئت لأقتل شخصا ، لا لأحبه وأثنى على اختلاف طبعه عن

طبعى .

— ولكنك لن تقتله وحدك ، ولن تقتله بلا معنى . لسوف تقتله

بالاشتراك معنا ، وباسم الشعب الروسى . وهذا هو ما يبررك .
— لست فى حاجة إلى تبرير . فلقد تبررت ذات ليلة بلذع السياط فى
المنفى . ولن أطيق ..

وهنا يهيب بهما « أنينكوف » أن يثوبا إلى العقل ، وأن يتذكرا أن
الجميع فى المنظمة مأخوذة قد ألوا على أنفسهم أن يتحدوا فى سبيل إعدام
الطغاة وتحرير الوطن .
وتعود « دورا » بعد أن سألت بواب المنزل عن رسالة يتوقعونها ،
وتقبل على « كاليايف » :
— ما خطبك ؟

— لقد تصادمنا . إن « ستيان » لا يحبنى .
— إنه لا يحب من الناس أحدا . ولكنه سوف يصبح أطيب نفسا بعد
أن تتم الثورة . لا تحزن !
— إنى حزين . إنى فى حاجة إلى أن تحببنى جميعا . لقد تركت كل شىء
من أجل المنظمة ، فكيف أحتمل أن ينصرف عنى إخوانى ؟ يبدو لى أحيانا
أنهم لا يفهموننى . وما ذنبى ؟

— بل إنهم يحبونك ويفهمونك . « ستيان » هو الشاذ .
— كلا ، إنهم يحسبوننى مجنونا . ومع ذلك فإنى أومن مثلهم بمبادئ
الإصلاح ، وأريد مثلهم أن أضحى بنفسى ، وأستطيع أن أكون مثلهم
كتوما فعلا . غير أن الحياة لا تزال تعجبنى ، فإنى شغوف بالجمال
والهباء . ولهذا بعينه أكره الاستبداد . كيف عسانى أشرح لهم ؟ إنها
الثورة ، نعم ، ولكن الثورة من أجل الحياة ...

هكذا يستبشر الفتى الرقيق ، ويصبو إلى جمال الحياة ونعيم الحب ، ويدعو إلى الخير والتآخي ، فما باله يصبر على قتل إنسان ؟ إنه لا يقتل إنسانا بل يريد أن يقتل الاستبداد الذى تجسم فى ذلك الإنسان . إنه لا يعتبر نفسه مجرما آثما ، بل مصلحا يسعى إلى أن يطهر الدنيا — بالقتل — من أسباب القتل . إنه لم يرض الاضطلاع بدور السفاح إلا لتكتسى الأرض من بعده بالأبرياء . ولقد اختار أن يلقي القنبلة لأنه يرى فى تعرضه للخطر ما يكفى لتبريره ، ولأنه يأمل أن يلقي حتفه ، فيصبح موته فى سبيل المثل الأعلى تكفيرا عن ذنبه .

وما أشد ما يطرب عندما تبين له « دورا » — التى تحبه وتعجب به — أنه يضاعف من كرمه إذا لم يمت ساعة الاغتيال مباشرة ، واستطاع أن ينتظر حتى يموت بحبل المشنقة ، فهو على هذا النحو كمن يموت مرتين مقابل ميتة شخص واحد ، ويبيت بذلك فى مصاف الأبرار الذين لا لوم عليهم ولا تريب . وإنها لتمنى مثله هذا المصير ..

ويحضر بواب المنزل الرسالة ، فيفضها الرئيس « أنينكوف » ويعلن أن « الدوق الأكبر » سيذهب إلى المسرح فى اليوم التالى ، ويأمر « دورا » إذن بأن تجهز القنبلتين ، كى يلقي بهما « يانك » و « فوانوف » على العربة على التعاقب . وتخرج دورا تتبعها نظرات « يانك » الحانية ، ولا يلبث هذا أن يستدير صوب « ستيان » قائلا فى وداعة :

— سأقتله .. فرحا !

● وتسفر ستارة الفصل الثاني عن نفس المكان ، في مساء اليوم التالى . ولم يبق في وكر الثوار إلا « دورا » ، والرئيس ، الذى يطل من النافذة ويتربح ما يرسل إليه « ستيان » من إشارات اصطلاحا على معانيها . أجل ، إن الأمور فى الخارج على ما يرام : « يانك » فى مكمنه القريب مزودا بقنبلته اليدوية ، وكذلك « فوانوف » من ناحية المسرح .

وهاهى ذى مركبة « الدوق الأكبر » تقبل من بعيد ، ويعلو ضجيج ركضها إذ تمر أمام البيت ، ثم تبتعد وتخفت الأصوات . بعد ثوان لا بد أن يدوى الانفجار .. ويصيخان ، غير أنهما لا يسمعان شيئا ! ويطول انتظارهما ... لا شك أن المركبة قد وصلت الآن إلى المسرح ، فما سر هذا السكون ؟ وتوول « دورا » تلك الظاهرة بأن الشرطة قد ألقت القبض على « يانك » متلبسا ، وتجزع لهذا الخاطر ، وتلتاع :

— أيعقلونه دون أن يفعل شيئا ؟ لقد كان مستعدا لأن يفعل كل شيء ! كان يريد السجن والمحكمة .. ولكن بعد أن يقتل « الدوق الأكبر » . ما هكذا ، كلا ، ما هكذا !

وسرعان ما يرجع « فوانوف » — ومعه القنبلة الثانية — حائل الوجه لاهثا . ويستجوبه الرئيس ، غير أنه لا يدري ماذا طرأ . فلقد كان ينتظر تفجير القنبلة الأولى ، ولكنه شاهد المركبة تجتاز مكمن « يانك » آمنة ، فأخذته العجب ، وظن أن الرئيس قد غير الخطة فى آخر لحظة ، ومضى يعدو نحو المقر ..

ثم يدخل « يانك » هامى الدمع ، ذاهلا ، فيقول :
— إخوانى ، اغفروا لى ! لم أستطع .
وتعطف عليه « دورا » وتواسيه ، أما الرئيس فيسأله فى صرامة :
— « يانك » ، هل تولاك الخوف ؟

فيصحو الفتى من ذهوله ويحتج :
— الخوف ؟ كلا ! وليس لك الحق
فى أن تظن بى هذا الظن .
ويطرق الباب طارق بالتوقيع
المعهود . إنه « ستيان » ، الذى يشرح
الأمر للرئيس ، دون أن يخلو كلامه من
شماتة :

— كان فى المركبة طفلان ، هما ابنة
وابن أخى « الدوق الأكبر » .
— لقد كان مقدر أن يخرج « الدوق
الأكبر » بمفرده ، حسب الأنباء التى
استقها « أورلوف » ..

— وكانت معهم « الدوقة الكبرى »
أيضا . ويظهر أن هذا العدد قد فاق طاقة
شاعرنا . من حسن الحظ أن الجواسيس
المبثوثين لم يلحظوا شيئا .

ويواصل الرئيس حديثه مع



« ستيان » بصوت خفيض ، على حين تستقر الأنظار على « يانك » الذى يرفع عينيه صوب « ستيان » ، قائلا وكأنه فى حلم :

— ما كنت أتوقع .. كنت أتوقع كل شيء ما عدا الأطفال . هل تأملت طفلا ؟ هل تستطيع أن تحتمل نظرة الطفل البريئة الجلييلة ؟ .. عندما لاحت المركبة كان قلبى يخفق طربا ، وازداد خفقه باقترابها ، وأنا متلهف إلى أن أثب وأضحك . وبالفعل جريت نحوها . وفى تلك اللحظة رأيتهما .. ولم أر « الدوقة الكبرى » .. لم أر سواهما .. ولست أدري إذ ذاك ما حل لى . لقد ارتحت ذراعى وارتعدت ركبتاى . وعندما استعدت وعيى كانت المركبة قد فارقتنى .

ويدافع الفتى عن نفسه دفاعا إنسانيا مخلصا :

— لست جبانا . لقد أردت أن أقتل نفسى على إثر هذا الفشل ، بالقبلة ذاتها . ولكنى عدت إليكم لأقدم إليكم حسانى أولا ، ولأنكم قضائى ، فاحكموا على أولى ، أنتم الذين لا تخطئون .

ثم يقترح أن يمضى فيتربص للمركبة فى طريق رجوعها من المسرح ، ويتعهد بأن يبيدها بمفرده ، إذا قررت اللجنة وجوب إعدام الطفلين . فما عليه إلا أن يصدع بالأمر الذى يصدره الإجماع .

ويحتدم الجدل حول تلك القضية الرهيبة . وما العمل ؟ هل ينبغى أن يلقي « يانك » قنبلة هذه الليلة ، قبل فوات الفرصة ؟ لا بد من حسم الموضوع . ويحدد الرئيس وجهة النظر الشكلية ، معترفا بأن المنظمة هى المسئولة عن بلبلة إرادة « يانك » لأنها لم تنبئه بوجود أطفال . ثم يبدى كل عضو رأيه ، فيؤيد موقف « يانك » كل من « فوانوف » و « دورا » ،

ويعارضهما « ستيان » :

— أتدرون ماذا يعنى هذا القرار ؟ إنه يعنى أننا ضيعنا شهرين من التربص والتدبير بلا جدوى ، وأن رفيقنا « إيجور » قد اعتقل بلا جدوى ، ورفيقنا « ريكوف » قد شق بلا جدوى ، وأنا ينبغي أن نعيش أسابيع أخرى مرهقة ، يشتد فيها علينا الخطر والسهر والتوتر ، قبل أن نحين الفرصة المواتية .

— إنك لتعلم أن « الدوق الأكبر » سيذهب إلى المسرح مرة أخرى بعد يومين .

— .. بعد يومين يمكن أن يلقي خلالهما القبض علينا .

ويهم « كالييف » بأن ينطلق بقبلته ، إلا أن « دورا » تستبقه ريثما تسأل « ستيان » :

— هل تستطيع يا « ستيان » أن ترمى بالرصاص طفلا ، وعيناك مفتوحتان ؟

— أستطيع إذا أمرتنى المنظمة بذلك .

— فما بالك تغبض عينيك ؟

وينكر أولا أنه أغمض عينيه ، ولكننا رأيناه يغمضهما ، ثم يعلل حركته تلك غير الإرادية بأنه إنما أراد أن يتمثل المنظر ويحجب طبقا لما يتمثله .. فتنبه « دورا » إلى ضلاله :

— افتح عينيك وافهم أن المنظمة سوف تفقد سلطتها وتأثيرها في الرأى العام إذا تهاونت لحظة واستباححت أن تسحق الأطفال بقنابلها .
— إن قلبى لا يتسع لهذه البلاغات . يوم نعزم على نسيان الأطفال

سوف نصبح سادة العالم وسوف تنتصر الثورة .
— وفى ذلك اليوم ، سوف تبغض الإنسانية جمعاء ثورتنا .
— لا يهمننا غضب الإنسانية علينا ، ما دمنا نحن نحب الثورة حبا يكفى
لأن نفرضها على الإنسانية جمعاء ، حتى نخلصها من عبوديتها .
— وإذا رفض الشعب — الذى من أجله نكافح — أن نقتل أطفاله ،
هل نضرب الشعب أيضا ؟
— نعم ، إذا اقتضى الأمر ، نضرب الشعب إلى أن يفهم . إننى أنا أيضا
أحب الشعب .

— الحب لا يتخذ هذا الوجه .
— ما أنت إلا امرأة ، وصورة الحب لديك صورة تعسة .
— ولكنى أرى العار فى صورته الصحيحة .
— لقد تجرعت أنا العار يوم ضربونى بالسياط .. فأى عار أخشاه
الآن ؟

ولا يستطيع الرئيس أن يقر تطرف « ستيان » ، فيذكره بأن مئات
من الإخوة فى الجهاد قد استشهدوا ليعلم الناس أن هناك أشياء غير
مشروعة . كلا ، إن الغاية لن تبرر الوسيلة .

غير أن « ستيان » لا يفتنع ، فهل عساهم يتركون — فداء لهذين
الطفلين — ألؤفا من أطفال الشعب يموتون جوعا ؟ إذا رضى الثوار أن
يعيشوا فى الحاضر وأن يتخلوا عن المستقبل ، فعليه أن يتبعوا طريق المحبة
والإحسان ، لا طريق الثورة التى تريد علاج جميع الأدواء — أدواء
الحاضر والمستقبل . ويرمى هذا المتطرف رفاقه بأنهم لا يؤمنون بالثورة

وبحقوقها . فيخرج « كاليايف » من صمته ليرد عليه :
— إننى خجل من نفسى ، ولكنى لن أسمح لك بالاسترسال . أنا
ارتضيت أن أقتل لكى أقوض الاستبداد ، لا لأتشیع لمثل تطرفك الذى
ييشرنا باستبداد جديد ، إذا استقام له الأمر يوما فإنه خلى بأن يجعل منى
سفاحا لا قاضيا .

— سيان أن تكون قاضيا أو سفاحا ، مادام الغرض هو تحقيق العدل .
— ليس بالعدل وحده يحيا الناس .

— إذا سلبوهم الخبز ، فهل يحيون بغير العدل ؟
— إنهم يحيون بالعدل وبراءة الضمير .
— البراءة ؟ لعلى أعرفها ، ولكنى اخترت أن أتجاهلها ، وأعمل على أن
يجهلها الناس حتى يجيئ اليوم الذى ينطبق فيه اسمها على معنى أكبر .
— حتى يجيئ ذلك اليوم ، الذى يبين لك ولى أيا منا كان على حق ،
ربما نضطر إلى أن نضحى بثلاثة أجيال ، بين حروب وثورات طاحنة .
ويوم يجف سيل تلك الدماء على الأرض سنكون — أنت وأنا — قد
اختلطنا بترابها منذ زمن طويل .

— سوف يخلطنا إذ ذاك غيرنا . وإنى لأحييهم تحية إخوة لنا .
— غيرنا ؟ .. إنما أنا أحب هؤلاء الذين يعيشون اليوم على الأرض
مثلئى ، وهم الذين أحييهم . إننى من أجلهم أناضل وأقبل الموت . وأما من
أجل مدنية مقبلة بعيدة ، لست واثقا من وجودها ، فلن أمضى لألطم
إخوتى . لن أضيف إلى الجور الذى شب ، جورا لم يولد .. ماذا عسى أن
يقول أبسط فلاحينا فى هذا المقام ؟ سيقول إن قتل الأطفال عمل يخل

بالشرف . ولو قدر لى أن أعيش وأرى الثورة تنصرف عن الشرف ،
فلسوف أنصرف عنها ..

ويحتد الجدل بين « يانك » و « ستيان » ، فيلفت الرئيس نظر
الأخير إلى أن الأغلبية لا ترى رأيه . ويرضخ « ستيان » وهو يحتج
قائلا : « ومع ذلك فالثورة لا تناسب رقاق النفوس . إننا قتلة ، وقد
اخترنا أن نكون قتلة . » .

فيصيح « يانك » : « كلا . إننى اخترت أن أموت لكى لا يسود
القتل والاعتقال . إننى اخترت أن أكون بريئا . » .

على المنظمة إذن أن تنتظر يومين وأن تتأهب لإعادة الكرة . وينصت
الجميع عندما تمر فى الشارع مركبة « الدوق الأكبر » ، إلى أن يخفت
ضجيجها . ثم يقول « فوانوف » لـ « دورا » : « فلنبداً من
جديد .. » .

ويردف « ستيان » ، فى ازدراء : « نعم ... فى سبيل الشرف ! » .

٣

● ويجمعنا الفصل الثالث بالثوار فى وكرهم مرة أخيرة قبيل تنفيذ
المؤامرة . ولكن أين « فوانوف » — الذى سيلقى القنبلة الثانية بعد
« يانك » ؟ — إنه فى حاجة إلى شىء من الراحة والنوم ، كما يقول
الرئيس ، ولا بأس عليه ، فما زالت أمامه فسحة من الوقت تقارب
نصف ساعة .

ها هو ذا يدخل ، بيد أنه لم يفلح في انتجاع الراحة ، بل ولم ينم طيلة الليلة البارحة . وإذ يسأل أن يحتلى بالرئيس ليفضى إليه بأقوال خاصة ، يخرج الآخرون . ويحاول أن يتكلم وقد انفرد بأنينكوف ، غير أن الخجل يعقد لسانه . فيستجوبه الرئيس :

— ألا تريد أن تلقى القبلة ؟

— لن أستطيع .

ويعترف باستحيائه من القيام بهذا العمل ، وبخوفه أيضا . فما باله قد انطلق أمس الأول لتفجير القبلة ذاتها متهللا قوى العزيمة ؟ لقد كان في حقيقة الأمر يجاهد نفسه ، وقبع في مكانه ينتظر المركبة وهو منقبض الفكين ، متوتر الفرائص ، يهيب بشجاعته ويشحن بها قلبه شحنا ، ثم لاحت المركبة وسرعان ما مرت به وخلفته ، فأدرك إذ ذاك أن « يانك » لم يقذف قبلته ، واستولت عليه قشعريرة رهيبة ، وسرى في أوصاله برد لم يفارقه منذ تلك اللحظة . وعثا يهون الرئيس عليه ، ويؤكد له تارة أن ديب الحياة لا بد أن يعود إلى الجسم الحى ، ويعرض عليه تارة أخرى أن يعدل عن إلقاء القبلة وأن يرحل للاستجمام شهرا في ربوع فنلندا ثم يؤوب نشيطا لاستئناف الإرهاب ..

— كلا . إنى إذا لم ألق القبلة الآن ، فلن ألقها أبدا .

— لماذا ؟

— إننى لا أصلح للإرهاب . لقد ثبت لى هذا . ومن الخير أن أغادر

صفوفكم ، وأن أجاهد فى لجان الدعاية .

— ستعرض فيها لنفس الأخطار .

— نعم ، ولكن المرء يستطيع أن يعمل بها وهو مغمض العينين ، يجهل الأحوال الفاجعة .

ويتدفق كالمحموم يشرح وجهة نظره : فما أيسر الاجتماعات والمناقشات ، وإبلاغ القرارات إلى اللجان التنفيذية ، إذا قورن هذا كله بوقوفك بين إخوتك من أبناء الشعب وهم يحثون خطاهم في المساء ليجدوا في بيوتهم العشاء الساخن وحنان الزوجة وأنس الأولاد ، وأنت صامت كتوم جامد ، تشد ذراعك إلى الأرض قبللة ثقيلة ، وتحصى الدقائق والثواني لتوقيع حركة مرهقة .. إن السجن ، بل والموت ، لأخف وطأة على نفسه من أن يحمل حياته وحياة شخص آخر في يده التي تقبض على القبلة ، وأن يخوض بهما أوار اللهب ! وهو على كل حال يريد أن يكفر عن ذنبه بأن يتقبل في تواضع حدود مقدرته ، وأن يخدم الثورة ولو في مكان الضعفاء .

ويعفيه الرئيس من العمل . ويفضل الفتى الرقيق أن ينصرف دون أن يودع زملاءه ، فهو لا يقوى على أن ينظر إليهم . ثم يضيف :
— قل لـ « يانك » إن انهيارى ليس نتيجة لتردده ، وإننى أحبه ، كما أحبكم جميعا .

ويعانقه « أنينكوف » قائلا :

— وداعا أيها الأخ . سوف ينتهى كل شيء ، وسوف تسعد روسيا .
ويخرج « فوانوف » ، وكأنه يلوذ بالفرار ، وهو يقول :
— أى نعم .. لتسعد ! لتسعد !

ويعلن الرئيس للأعضاء رحيل رفيقهم ، وإنه هو الذى سيلقى القبلة

بدلاً منه ، بينما يحل محله في الرئاسة « ستيان » ريثما يعود بعد مصرع « الدوق الأكبر » — إذا قدر له الإفلات من الشرطة — ويحاول « ستيان » أن يكون هو قاذف القنبلة ، حتى يصب معها نغمته على الطاغية ، ولكن الرئيس الحازم لا يرجع عن قراره ، بل يخرج مع « ستيان » إلى حيث يسلمه التعليمات الأخيرة .

وهنا يجلس « يانك » ، وتقترب منه « دورا » . ويتحدثان في أسى عن « فوانوف » ، فتقول « دورا » :

— سوف يعود .

— لا . لو كنت في مكانه ، لغمرني اليأس .

— والآن ، ألا يتطرق إليك اليأس ؟

فيجيب في حزن :

— الآن .. إلى معكم ، وإلى سعيد كما كان هو من قبل .

— فلماذا أراك كاسف البال ؟ لقد مضيت أمس الأول مشرق الوجه

طروباً . واليوم ..

— اليوم أعلم ما لم أكن أعلم . لقد كنت أحسب أن القتل شيء

سهل ، تكفى فيه الفكرة والشجاعة . ولكنني لمست أنه لا سعادة مع

البغض . كل هذا الشر .. هذا الشر في نفسي وفي نفوس الآخرين ..

اغتيال ، وجبن ، واعتداء ! .. أوه ، بل ينبغي أن أقتله .. غير أنني سأواصل

السير إلى النهاية ، إلى ما وراء البغض !

— وماذا وراء البغض ؟ لا شيء .

— هناك الحب .

(أوديب الملك)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

— ليس الحب هو اللازم .

— كيف تقولين هذا يا « دورا » ، وأنا أعرف قلبك ؟

— لقد كثر سفك الدماء حولنا ، واشتد العنف . ولا حق في الحب لمن يخلصون للعدالة ، وإنما عليهم أن يكونوا مثلى ، فأنا مرفوعة الرأس ، ثابتة العينين . وأين مكان الحب في القلوب الشماء ؟ إن الحب يحنى الرؤوس في رفق ، أما نحن فقد تصلبت أعناقنا .

— إنما نحن نحب شعبنا .

— أجل ، إنما نجه .. حبا تعسا . فنحن نعيش في عزلة عنه ، رهن أوكارنا وأفكارنا . والشعب ، أتراه يحبنا ؟ وهل يدرى أننا نجه ؟ إن الشعب صامت . ويا له من صمت !

— بل إن ذلك هو الحب : إعطاء كل شيء ، وتضحية كل شيء ، دون مقابل .

— ربما . ذلك هو الحب المطلق ، الذى ينطوى على نفسه ، والذى يلتهمنى .. إلا أنى أتساءل أحيانا : أليس الحب شيئا آخر ، غير حديث المرء المتواصل مع نفسه ؟ أليس له أن يكون جوابا نلتقاه ممن نحب ؟ إننى أتخيل هذا .. أتخيل الشمس تسطع ، والرؤوس تنحنى في رفق ، والقلب يخلع كبرياءه ، والأحضان تنفتح . آه ! « يانك » .. ليتنا نستطيع — ولو ساعة واحدة — أن ننسى بؤس العالم المستحكم وننقاد لما نهوى .. هل يخطر لك ذلك ؟

— نعم يا « دورا » . ذلك اسمه الحنان .

— إنك تحدى كل شيء يا حبيبى . ولكن ، هل تعرف الحنان حقا ؟
هل تحب العدالة وأنت تحنو ؟

- فيصمت الفتى ، وتسترسل صاحبه :
- هل تحب شعبنا بعواطف الرحمة والود ، أم بغلة الثأر والثورة ؟
- ولا يخرج عن صمته ، فتدرف سائلة بصوت خفيض :
- وأنا ، أتحبني بحنان ؟
- فينظر إليها وما زال صامتا ، ثم يجيب :
- لن يحبك امرؤ مثل ما أحبك .
- أعرف هذا . ولكن أليس خيرا أن نحب كما يحب الناس ؟
- إننى لست كسائر الناس . فأنا أحبك كما أنا .
- أتحبني أكثر مما تحب العدالة ، وأكثر مما تحب المنظمة ؟
- أنا لا أفضل بينك وبين المنظمة والعدالة .
- أجل ، ولكنى أناشدك أن تحببني : أتحبني فى وحدتك حب الحنان ، حب الأنانية ؟ أتحبني غير عادلة ؟
- لو كنت غير عادلة وأحببتك ، فإننى فى هذه الحال لا أحبك أنت .
- إنك لا تحبب . قل لى فقط : هل كنت تحبني ، لو لم أكن بين أعضاء المنظمة ؟
- فأين عساك أن تكونى ؟
- أيام دراستى ، كنت طالبة مرحلة حسناء ، وكنت أقضى الساعات الطوال أتنزه هائمة حاملة . هل تحبني خفيفة غير مبالية ؟
- ويتردد « يانك » ، ثم يقول هامسا :
- بودى أن أقول لك : نعم .
- فتهتف به « دورا » ، وقد انتصر قلبها :

— إذن فقلها . قل « نعم » يا حبيبي إذا كنت ترى أن ذلك هو الحق .
« نعم » في وجه العدالة ، وأمام بؤس الشعب المكبل .. « نعم » ،
« نعم » ، رغم احتضار الأطفال ، وضرب الشياطين ، وشنق الرقاب ..
وتنطلق كالطائر الأسير من قفصه ، ويعلو صوتها إلى حد الصياح ،
وهي تريد أن يسمعها حبيبها ، وأن يكون إليها دعاؤه ، فوق عالم قد باء
بالشر والجور .. فينهرها « يانك » :

— اسكتي ! إن قلبي لا يحدثني إلا عنك . ولكنني بعد لحظات لا يجوز
لي أن أضطرب .

فتثوب إلى وعيها ، وتذكر المؤامرة ، وتنفجر ضاحكة وكأنها تشهق
بالبكاء ، وتحتذر بأن التعب هو الذي دفعها إلى الهذيان ، وتعترف بأن
دفع الحنان حرام عليهم ، ثم تشيح بوجهها شاكية راثية :
— رحمته للأبرار !

فينظر إليها متحسرا ويقول :

— ذلك ما قسم لنا ، فالحب مستحيل علينا . ولكنني سأقتل « الدوق
الأكبر » ، وإذا ذاك يحل السلام ، فتتعمين به وأنعم .
— السلام ؟ ومتى نجده ؟
— غدا .

ويدخل « أنينكوف » و « ستيان » . لقد حانت ساعة التنفيذ ،
فيتنفس « يانك » الصعداء ، ويفارق صاحبه دون أن يقبلها . إنها قريبة
منه ، ولكنهما لا يتلامسان :

— وداعا « دورا » !

— لن أقول وداعا ، بل إلى الملتقى . فلسوف يجتمع شملنا .
وتملأ عينها الدموع ، وهى جامدة تنظر إلى الباب الذى خرج منه ،
بينما يقول « ستيان » :

— ما أروع انتصابه فى مشيته ! لقد كنت مخطئا حين شككت فى
عزيمة « يانك » . ولكن حماسه لم تكن تعجبني .. إن روحه ضعيفة ،
ويده قوية . إنه خير من روحه . لا بد أنه سيقتل « الدوق الأكبر » ، بل
وسيبيده .

ويتحدث « ستيان » بلغة الحقد الذى يأكل قلبه ، فلا تجيبه
« دورا » ، وإنما تلوذ بالصمت . ولكى يدفعها إلى الكلام ، يسألها :
— أتحيينه ؟

— ليس لنا فى الوقت فسحة للحب ، فوقتنا لا يكاد يتسع إلا للعدالة .
— أصبت . ينبغي أولا تدمير هذا العالم ومحقه ..
غير أن « دورا » تقارن بينه وبين « يانك » ، فتلومه على استسلامه
للضعينة . وإذا بستييان — بعد أن يقاوم سخطه لحظة — ينفجر منددا
بالحب ، مكشرا عن أنياب حقهده ، وإذا به يشق قميصه ، ويكشف لها عن
صدره وهو يصيح :

— انظرى ! هذه آثار السياط ! هذه آثار جهنم !.. هل تحتقريننى
الآن ؟

وتراجع « دورا » مرتاعة ، ثم تدنو منه فجأة وتقبله ، قائلة :
— ومن يحتقر الأمل ؟ إني أحبك أيضا .
ويلتمس « ستيان » العذر لعنفه بطول الجهاد وقسوة المنفى ، وبآثار

السياط هذه التى لا يستطيع أن يغتفرها ، فهو عاجز عن الحب .
وتدق الساعة السابعة ، فيتجهان إلى النافذة ويتطلعان . ولا نلبث
حتى نسمع من بعيد ركض مركبة مقبلة . ويخفت صوت المركبة ، ثم
يدوى انفجار هائل . فثب « دورا » ، وتخفى وجهها فى كفيها . إنه
انفجار واحد ، أى أن « أنينكوف » لم يلق القنبلة الثانية . ويتهلل
« ستيان » :

— لقد أصابه « يانك » ! مرحى ! مرحى أيها الشعب !
وترمى عليه « دورا » باكية ، تردد :
— إننا نحن الذين قتلناه ! أنا التى قتلتها !
— قتلنا من ؟ أتعنين « يانك » ؟
— بل « الدوق الأكبر » .

وينتهى الفصل بهذه العبارات الموجزة العميقة التى يختلط وراءها الرثاء
للجاني والمجنى عليه ، ويلتقى فى نبراتها تكبير الشماتة وتقريع الضمير .

٤

● وينقلنا الفصل الرابع إلى سجن (بوتير كى) ، بعد انقضاء
أسبوع . ونرى « يانك » فى زنزانه ، ينظر إلى الباب ، الذى يفتحه
الحارس ويدخل منه ، ومعه سجين يحمل دلو للتنظيف المكان . ويدور بين
السجين الشيخ وبين « يانك » حوار غريب . يسأله الفتى :
— ما اسمك أيها الأخ ؟

- « فوكا » .
- ولماذا سجنوك ؟
- قتلت .
- لأنك كنت جائعا ؟
- لا . لأنني كنت عطشان ، فشربت ، وقتلت بالفأس ثلاثة .
- ويتفرس فيه « يانك » ، صامتا . فيسأله المذنب :
- هل تجفل مني ؟
- لا . لقد قتلت أنا أيضا .
- كم ؟
- واحدا .
- بسيطة ! لا بأس عليك .
- لقد قتلت « الدوق الأكبر ، سيرج » .
- « الدوق الأكبر » ؟ .. إنك من الأعيان ! .. وهل عقوبتك
- شديدة ؟
- شديدة . ولكن ، كان لا بد من قتله .
- لماذا ؟ هل أنت من أهل البلاط ؟ .. لا شك أنك قتلته من أجل
- امرأة ، أليس كذلك ؟ فإنك شاب وسيم ..
- إنني اشتراكي نائر .
- ولا يفهم هذا الفلاح ما الذي دفع « يانك » إلى القتل ، لا سيما وهو
- من أبناء طبقة راقية تتمتع بنعيم الحياة وتمتلك الأرض . فيشرح له الفتى :
- إنما الأرض لك . ولقد كثر البؤس فكثر الجرائم . ويوم يقل

البؤس ، سوف يقلل الإجرام . ولو كانت الأرض حرة ، لما كنت أنت هنا .

- حرة أم غير حرة ، لا يجب أن يسرف المرء في شرب الخمر .
- أجل ، ولكن المرء يشرب لأنه يشعر بالهوان ويريد أن ينساه .
- لسوف يأتي عهد لا يمتاز فيه غنى على فقير ، بل سنكون جميعا إخوة ، وستجعل العدالة قلوبنا ناصعة شفافة .
- وماذا يصنعون بالذى يقتل « دوقا أكبر » ؟
- يشنقونه .

فينصرف السجين الشيخ عن « يانك » ، بينما يفرق الحارس في الضحك . ويا هول ما يقف عليه « يانك » ، عندما يستجوب هذا السجين عن سر نفوره ! ذلك إنه هو المكلف بشنق المحكوم عليهم بالإعدام ، ومقابل قيامه بعمل الجلاد ، يخففون عقوبته :

— عن كل شخص أشنقه ، يخصمون من مدة سجنى سنة . إنها عملية مريحة !

- ألكى يغفروا جرائمك ، يدفعونك إلى اعتراف جرائم أخرى ؟
- هذه ليست جرائم ، ما دام محكوما عليهم بالشنق .
- وكم مرة فعلت ذلك ؟
- مرتين .

فيتراجع « يانك » .. ويخرج الحارس و« فوكا » . ويدخل « سكوراتوف » ، رئيس الشرطة . ونعلم أنه هو الذى أرسل « فوكا » للتأثير على أعصاب « يانك » . ولكنه يظل رابط الجأش ، ويلتزم

الصمت العيوف إزاء هذا الثرثار الأنيق الذى يحتال لينتزع منه اعترافا .

— جئت أقدم لك الوسيلة التى بها تنال العفو .

— إني أرفض عفوكم .

— اسمع لى على الأقل : قد تكون محقا فى أفكارك ومبادئك ، ما عدا

جناية الاغتيال ..

— إني أنهاك عن استخدام هذه الكلمة ! فأنا أسير ، لا متهم .

— ولكن هناك إضرارا ، أليس كذلك ؟ دعنا من منصب « الدوق

الأكبر » ومن السياسة ، ألا تجد أن النتيجة هى مقتل إنسان ؟

— لقد ألقيت القنبلة على طغيانكم ، ولم ألقها على إنسان . لقد نفذت

فيه حكما صدر عليه .

— تريد أن تقول إن « الدوق » لم تقتله قنبلة ، وإنما قتله مبدأ ، ولكنك

أنت الذى أطحت برأسه ، فأنت فى حاجة إلى العفو عن شخصك .

— شخصى أرفع من منالك وأرفع من سادتك . إنكم تستطيعون أن

تقتلوني ، لا أن تدينوني . أراك تبحث عن نقطة ضعف عندى ، لتدفعنى

منها إلى الشعور بالعار وإلى الندم والبكاء . هيهات ! ليس لكم شأن

بشخصى ، وإنما لكم بغضى كله وبغض إخوتي .

وإزاء تشبث المجاهد الصالح بمبادئه ، وتكتمه على إخوانه ، يأتيه الرجل

الداهية عن طريق قلبه ، ويقرعه قائلا :

لقد أمكن للمبادئ أن تقتل « الدوق الأكبر » ، ولكنها عجزت عن

قتل الأطفال . فهل تستحق هذه المبادئ العاجزة أن تقتل من أجلها

« الدوق الأكبر » ؟

ويهم « يانك » بأن يجيب ، فيقاطعه رئيس الشرطة :

— سوف تفضى بجوابك للدوقة الكبرى .

— « الدوقة الكبرى » ؟

— نعم . زوجته . إنها تريد أن تحدثك ، وأن تحولك عن رأيك ، لأنها

سيدة تقية .

— لا أريد أن أقابلها .

غير أنه لا يلبث حتى تدخل عليه
« الدوقة الكبرى » تجلله ملابس
الحداد ، ويتصبب في كلامها الأسى . إنها
تقول له :

— أظن أنك مثلى . فأنا أتألم ،
ولا أستطيع أن أنام . ولن أجد من
يحدثني عن الجريمة خيرا من القاتل .

— أية جريمة ؟ إني لا أذكر سوى
تنفيذ حكم عادل .

— ما أشبه صوتك بصوته ، عندما
كان يقول : « هذا عدل » ! لقد كان
يقضى بين الناس ، ولعله كان يخطيء
مثلك أحيانا ..

— لقد كان يمثل الظلم الذى يشن منه
الشعب منذ أجيال ، وكان مقابل ذلك
يتمتع بامتيازات . أما أنا ، فإذا كنت قد



أخطأت ، فالسجن والموت هما أجرى .
وتفطن المرأة إلى أنه مرهف الضمير ، فتكأ جرحه بوصف الفقيد في
ساعاته الأخيرة ، وكيف كان إنسانا عاديا ، ثم تحاول أن تشككه في براءة
الطفلة التي تورع عن قتلها ، وتخلص من ذلك إلى أنه إنسان خاطيء ،
تعوزه رحمة الله :

— هل لك أن تصلى إلى الله معى ، وأن تتوب توبة نصوحا ؟
— دعيني أستعد للموت . إننى إذا لم أمت ، أصبحت فى عداد
السفاحين .

وتستلينه بالعطف عليه ، فلا يلين :
— إنك عدوتى . وأبشع من الجريمة يا سيدتى أولئك الذين يدفعون إلى
الإجرام بريئا .. وما أشد سعادتى حينما أصعد إلى جبل المشنقة وأنصرف
عن عالمكم القبيح ، وأستسلم للحب الذى يملؤنى .
— ما هو هذا الحب الرهيب ؟

— إن الحياة عذاب ما دامت تفصل بين بعضنا وبعض . وقد يتاح
للأحباء أن يجمع شملهم جبل المشنقة .

وندرك أنه يفكر فى « دورا » .. وإذ تقول له الدوقة الكبرى : « لقد
كنت أحب الرجل الذى قتلته » ، يغفر لها إيلاها إياه بهذا الحديث .
وينتهى اللقاء بإصرارها على أن تطلب له العفو من الله ومن الناس ،
وبإصراره على رفض ذلك العفو .

ويعيد الكرة رئيس الشرطة ، إلا أنه لا يفلح فى تهديد الفتى بعزمه على
أن ينشر فى الصحف اعترافات ينسبها إليه حتى يظن رفاقه أنه قد خانهم .

— لن يصدقوك .
— لماذا ؟ ألم تتسرب إلى نفوسهم خطيئة ؟
— إنك لا تعرف جبههم !



● ويعود بنا الفصل الخامس إلى الثوار ، في وكرهم جديد ، وقد أظلم الليل . وفي السكون المطبق ، نرى « دورا » تذرغ الغرفة بخطوات تنم عن الاضطراب والتلهف . ثم يقرع الباب بالاصطلاح المعهود ، فيفتح الرئيس ، ويدخل « ستيان » ومعه « فوانوف » . ويلقى « ستيان » آخر الأنباء التي استقاها من رفيقهم « أورلوف » ، الذي استدعى هذا المساء إلى السجن بوصفه ضابطا ، مما يوحي بأن إعدام « يانك » سينفذ الليلة .

ويتعلل الرئيس بأن القيصر قد يصدر عفوه عن « يانك » . غير أن عفو القيصر لا يكون إلا جوابا لطلب يتقدم به المحكوم عليه ، و« دورا » تؤكد — رغم ما أشاعته الصحف — أن « يانك » لم يستجد العفو . وهي تستمد يقينها هذا من أقوال التحدى الرائعة التي أدلى بها في المحكمة ، ثم تصيح في وجه رفاقها :

— افرحوا ، فلسوف يموت !

وينتهرها « أنينكوف » ، فتسترسل :

— بلى ! لو عفى عنه ، لصدقت رواية « الدوقة الكبرى » التي تصمه

بالندم والخيانة . وأما إذا مات فسوف تصدقونه وتحبونه .. آه ، ما أغلى ثمن حبكم !

وهنا يطمئنها « فوانوف » بأنه لم يشك لحظة في « يانك » ، بل وما دفعه إلى اللحاق بهم لاستئناف الجهاد سوى عبارات « يانك » الكريمة أمام قضاته ، فلقد قال : « ستكون ميتى هى احتجاجى الأكبر على عالم الدمع والدم ، وهى التى ستككل عملى بنقاء المبدأ الخاص » . ويخرج الرفيقان لملاقة « أورلوف » ، ويبقى الرئيس و « دورا » التى لا تملك نفسها :

— الموت ! المشنقة ! آه !

— نعم ، أيتها الاخت . ذلك هو الحل الوحيد .

— لا تقل هذا ! إذا كان الموت هو الحل الوحيد ، فإننا لسنا على الطريق القويم ، لأن الحق طريق ينبغى أن يؤدى إلى الحياة وإلى النور ..

— طريقنا أيضا يؤدى إلى الحياة .. حياة الآخرين .

— حياة أحفادنا ، نعم .. ولكن « يانك » فى غيب السجن ، وحبل المشنقة بارد .. ولعله قد مات الآن ، بينما يعيش الآخرون ! .. وإذا لم يؤد موته إلى حياة الآخرين ، وكان شنقه عبثا ؟

— اسكتى !

إنها تحس بالبرد يسرى فى أوصالها ، رغم فصل الربيع ، وبأنها هى التى تتجرع كأس الموت . ثم تنقد مبدأ الهدم والتقتيل ، وتفضى للرئيس بشك يساورها :

— هل نحن على يقين من أن خلفاءنا سيقفون عند الحدود التى

فرضناها على أنفسنا ؟ إننى عندما أسمع « ستيان » أحيانا ، يتولانى الخوف . فلربما يأتى بعدنا من يتخذوننا أسوة لكى يقتلوا الناس ، ولكنهم لا يدفعون حياتهم ثمنا .

— ذلك هو الجبن ، يا « دورا » .

ويصطرع فى قلبها الحب والموت . وتمثل « يانك » فى فناء السجن ينتظر لحظة إعدامه ، وتسأل « أنينكوف » :

— كيف بشنقون شخصا ؟

— فى طرف جبل .

— ويثب الجلاد فهو يديه على كتفى المشنوق .. وتفصم الرقبة ..

أليس هذا رهيبا ؟

— بلى . رهيب من ناحية ، ولكنه سعادة من ناحية أخرى .

— سعادة ؟

— سعادة الإحساس بيد إنسان قبل أن تموت .

وهاهما ذان الرفيقان يعودان بالأنباء . يدخلان واجمين ، فترنح

« دورا » ، ويقول « ستيان » بصوت خفيض :

— « يانك » لم يخن .

وتلح « دورا » فى استقصاء تفاصيل المشهد ، كما رواه

« أورلوف » :

لقد أبلغوه الأمر فى الساعة العاشرة ، وشنقوه فى الثانية صباحا ، ولم

ينس بكلمة طوال ساعات الانتظار الأربع . وأتوا به فى الزى الأسود ،

وكان الليل حالكا ، والجليد فى فناء السجن قدرا . ولم يرتعد ..

ويعقد التأثر لسان « ستيان » ، ويكي « أنينكوف » ، فتتول
« دورا » إتمام الوصف ، وكأنها كانت شاهد عيان ! لقد رأت « يانك »
يتقدم إلى المشنقة بخطوات ثابتة ، ورأته يموت سعيدا ، يتلقى السعادة مع
الموت .. ثم تهيب برفاقها في شرود :

— لا تبكوا ! هذا هو يوم التحرير . إن « يانك » ليس مجرما منذ اليوم .
لقد استعاد فرحة الطفولة . هل تذكرون كيف كان يضحك ؟ إنه
يضحك الآن ، وهو منكفىء على الأرض !
وتقترب من الرئيس ، ترجوه أن يأذن لها بإلقاء القنبلة التالية ،
فيعترض قائلا :

— إنك لتعلمين أننا لا نريد أن نضع النساء في الصف الأول .
فتصرخ نائرة :

— وهل أنا الآن امرأة ؟

وينظرون إليها جميعا ، صامتين . ثم يتوسل « فوانوف » و « ستيان »
إلى الرئيس لكي يقبل طلبها ، فيقول « أنينكوف » :

— لقد كان هذا هو دورك يا « ستيان » .

— إني أنزل لها عنه . فهي الآن تشبهني .

ويوافق الرئيس . وتتحيل « دورا » أنها تلقي القنبلة ، ثم تخاطب حبيبها
وهي تنتحب :

— « يانك » ! ذات ليلة باردة أيضا .. ونفس المشنقة ! لسوف يكون

كل شيء أيسر .



(أوديب الملك)

خفقة السراج قبل أن ينطئ .

● لا يمارى أحد في أن الكاتب الإيطالى الكبير « لويجي بيرانديللو » من أعظم كتاب التمثيليات في عصرنا هذا ، لا في إيطاليا وحدها ، بل في العالم كله ..

ولعلك لمست هذا في مسرحية « الحياة نفاق » أو « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » ، التى قدمتها لك قبل الآن .

.. أما المسرحية التى أقدمها لك اليوم ، فتعتبر نوعا جديدا فى أدب التمثيليات .. فهى من فصلين يكادان أن يكونا فصلا واحدا ، إذ لا فرق بينهما مستتر ، وإنما يفصل بينهما توزيع الأضواء على المسرح .. كما أنها تكاد تدور بين شخصيتين اثنتين ، وتكاد تكون صورتين مختلفتين لامرأة ..

وربما كانت هذه المسرحية آخر أعمال الأديب الكبير ، إذ كتبها فى اليوم الأخير من عمره — سنة ١٩٣٦ — حين بلغ التاسعة والستين . وفيها — مع هذا — تألق فى الفن ، ورسوخ فى التعبير ، يشبه خفقة السراج وقد أوشك أن ينضب !

ترفع الستار عن حجرة يخالها المرء في البداية حجرة نوم . ثم لا يلبث أن يتبين أنها حجرة « صالون » .. وقد استلقت السيدة الشابة على أريكة وثيرة فيه . أما سائر ما في الحجرة ، فلا تتبينه بوضوح ، لأن الظلام يسود المكان ، فلا يكاد يبين فيه سوى نور خافت أخضر اللون ، ينبعث من الأرض أمام الأريكة مباشرة . وعلى هذا الضوء يستطيع مدير المسرح أن يطلعنا على ما سيدور في رأس هذه السيدة النائمة .. وهي تحلم ! .. ذلك لأن المكان يبدو حجرة نوم ، طالما هي نائمة تحلم ، فإذا استيقظت ، وأضيئت الأنوار ، تجلت الحجرة على حقيقتها .. حجرة استقبال .. « صالون » !

وعلى هذا النور الأخضر ، نتبين إلى يمين الحجرة نافذة تطل على حديقة على شاطئ البحر .. وإلى يسار الحجرة مرآة تحتها « كونصول » . وفي مواجهة المسرح باب ..

وترفع الستار ، وليس يضيء المكان سوى ذلك الضوء ، الذى يكشف لنا عن يد ترتفع من وراء الأريكة .. يد ضخمة ، يضاعف الضوء من حجم ظلالها .. ثم ترتسم — وسط الظلام المحدث — صورة إنسان يقف عند رأس الشابة النائمة ، وقد اضطرب شعره ، وأطلت من عينيه نظرة قاسية متوعدة .. فهو من صور الكابوس ، وإن كان يرتدى ثياب السهرة !

ثم يتجه الضوء شيئاً فشيئاً إلى وجه النائمة ، فإذا بها تفتح عينيها ، وقد تقلص وجهها .. وما أن تنظر إلى الرجل ، حتى يبدو عليها أنها تذكر — شيئاً فشيئاً — أحداثاً سابقة .. والرجل صامت لا يتكلم ولا يتحرك !

هى : أهذا أنت ؟.. كيف استطعت الدخول ؟
ويضع الرجل يده فى صدره ، فيخرج مفتاحا صغيرا يريها إياه ، ثم
يرده إلى جيب صدره دون أن يقول شيئا .

هى : أوجدته أنت ؟.. هذا ما ظننته . لا بد أنه سقط من جيبي
بعد أن أخذته منك ، جزاء ما أبديت من رعونة فى المرة
الأخيرة .. ثم سقط من جيبي حينما قفزت من مكاني

* * *

ويحدها الرجل بنظرات صارمة ، فلا تلبث أن توجس خيفة ،
وتسأله : « لماذا تنظر إلى هكذا ؟ » . فيجيبها : « لا شيء ! » . ويجلس
بجوارها وقد وضع إحدى ذراعيه خلفها على ظهر الأريكة ، ويده
الأخرى على معصمها ..

هو : (ناظرا إليها بهيام) لا أستطيع أن أبعد عنك طويلا ،
فأنا لا أعيش إلا حينما تكونين بقرى هكذا .. أشم عير
شعرك ، ورائحة جلدك النضر ، والعطر الذى يتضوع من
كل كيائك .. إنك كل حياتى .. كلها لا استثناء !

وتنهض السيدة مغضبة ، وتمشى أمامه ضيقة الصدر بهذا الحديث
المعتاد .. ثم تجلس بعيدا عنه ، وتعتمد رأسها بين يديها كمن لا تدرى
كيف تخرج من هذا المأزق ، فيبتسم الرجل ابتسامة حزينة .

هو : (فى قنوط) الحب لا يأتى غضبا .. لا الرجل يستطيع أن
يرغم امرأة ، ولا المرأة تستطيع أن ترغب رجلا على
الاستجابة لحب نضب معينه .. على أنه من الواجب أن

تتوفر الشجاعة على المصارحة — على الأقل — لتقولى
لى : « لم أعد أحبك ! »

هى : كم من مرة منعت نفسى عن مصارحتك ، شفقة عليك ..

هو : إن المرأة التى تسكت بداعى الشفقة ، امرأة خادعة . فإن

وراء هذه الشفقة المزعومة تكمن دائما مصلحة نفعية

لها ، فإن لم تكن هناك منفعة ، فلا بد أن تكون الشفقة

زائفة !.. شفقة مفضوحة لا جدوى منها ، وحيلة

مكشوفة لا تنطلى على أحد !.. لماذا ؟.. لأن من يكون

صادق الحب ، يشعر على الفور أن حبيبته لم يعد يكن له

الحب حقا .. إنه يشعر بذلك حتما ، ولكنه قد يكتم فطنته

ويداريها : وفى هذه الحالة يكون خائنا ، وتكون العلاقة

بينهما — بعد ذلك — شيئا حقيرا قدرا .. فالشفقة

الصادقة يجب أن تكون سافرة ، لا تستر وراء الحب ..

يجب أن تكون كالصدقة تمنحها السيدة للمتسول

بصراحة ، دون أن توهمه بأنها تحبه .. وإلا لكان الجزاء

الحق لتلك الصدقة قبلة على الثغر ، وليس دعاء بالخير !

هى : ها ها !.. لكم يكون مضحكا منظر متسول يقبل بهيام

فم المحسنة التى تعطيه صدقة !

هو : (مستطردا) وهو لا يفعلها إلا إذا تأوّهت المحسنة

بهيام ، وهى تدس الصدقة فى كفه !.. إن الإخلاص

والصدق دين مقدس لا بد لنا من الوفاء به .. لأنفسنا

- ولسوانا . فالخيانة شيء فظيع .. فظيع !
- هي : وكيف أمكنك أن تشك في إخلاصى أيها العزيز ؟
- هو : لأن عندى كل مبرر لهذا الشك . (وينهض فيفتح النافذة ، ويطل منها .. وينساب صوت هدير البحر إلى الحجرة) أتذكرين ؟
- هي : أجل . نزهتنا البحرية في الليل ، في ذلك الصيف ..
- هو : والبحر أشبه ببساط من الفضة تحت ضوء القمر ..
- هي : حقا ، كانت تلك رعونة منا لا نظير لها أيها العزيز ! ..
- هو : وكنت أقول لك : ما أعجب أطمئناننا إلى هذا القارب الصغير الذى تستطيع موجة واحدة أن تدفعه إلى القاع .. وإنى أتمنى لو ثار البحر لأرى ماذا تصنعين ..
- هي : وقد أجبك بأنك إنما تريد بذلك أن تجرب خوفك أنت من تقلب حبى ، لأنك معى كراكب البحر ، لا يطمئن إلى حال !
- هو : وقلت لى أيضا — يا عزيزتى — إنك لا تعلمين هل يعيش حبك لى إلى الغد أم لا ، فرمما أحبيتنى الآن ، ثم انتهى حبك بعد لحظة .. وربما أحبيتنى بعد لحظة وكنت من قبل لا تحبيننى ! .. فانظرى الآن — أيتها العزيزة — فى عينى واصدقينى : ألم تحل اللحظة التى تشعرين فيها بأنك لا تحبيننى ؟
- هي : كن عاقلا ! .. أنت نفسك قلت منذ قليل إنه لا إكراه فى

الحب ..

هو : ويحيى ! ما أشقانى إذا كان حبك لى قد انتهى ، وحى لى لك
فى عنفوانه !.. ولكن اطمئنى ، فإن لىب حبى محصور فى
صدرى ، يتحكم فى عقلى .. أما أنت فحبك يولد
فجأة ، ويموت فجأة .. تتحكم فى المصادفات
والنزوات ، والسوانح والشوارد ، بغير حساب .. ولكن
احذرى أن يحرق الحب قلبك .. إن هذا قد يحدث فى
لحظة ، فإذا فؤادك رماد قبل أن تدركيه !.. إن الحب
يكون — أحياناً — عاصفة تجتاح العقل وتنفلت منه لتدمر
كل شىء ، إذ تنقض صواعقها على رأسك وبيتك ،
ولا تلبث أن ترديك ..

وعندئذ يسمع من النافذة هدير عاصفة بعيدة ، ويختفى ضوء
القمر ، ويومض البرق . فتغطى السيدة وجهها يديها مذعورة ، ويفعل
الرجل مثلها .. وتهدأ العاصفة فجأة ، وينساب ضوء القمر خلال
النافذة ، وترفع السيدة يديها عن وجهها ، لتجد الرجل يحدق فيها بوعيد
وغضب كما كان فى أول المنظر .

هى : قل شيئاً !.. قل لى : لماذا تنظر هكذا فى وجهى طول
الليل !.. تكلم !

ويختلج صوتها بالدموع ، ويظهر على وجهها الذعر والقلق ..
أما هو فيبدو كمن يغالب انفعالاتها .

هو : تعلمين أن حبك يملأ جوانحى ، وقد غيرنى هواك ، فلو

نظرت في مرآة ما عرفت نفسي .. إن هذا الوجه الذى
تنكرينه ليس وجهى ، وإنما هو وجه غريب غير الذى
تعكسه أمامى المرأة .. إنه الوجه الذى أعطيتنيه أنت ! ..
هذا الوجه — الذى يخيفك — من صنعك أنت .. إنه أترك
في حياتى ! أثر الالتواء والجريمة ! إن المرأة هى الضمير ،
وصورتي فيها هى صورتي أمام ضميري .. صورة
منكرة ! ولهذا لم أعد أجسر على النظر في مرآة ! ..
وإنك تعلمين جيدا أن هذه السحنة البشعة قد لازمتني
منذ فعلت — في النادى — ذلك الذى تعلمين جيدا ..
منذ غششت أصحابي في اللعب ! .. ولحسن حظي أنهم
لم يفتضوا إلى أننى غششت وسرقت كي أتمكن من شراء
ذلك العقد اللؤلؤى الفاخر !

هى : أو اه ، كلا ! كلا ! لم أعد أريده .. إننى لم أقل سوى أنه
يسرنى أن يكون لي هذا العقد .. كلمات قلتها بلا تفكير !
هو : بل قلتها لتذليلنى .. لتشعيرنى بأنك تستحقين عاشقا غنيا
يستطيع أن يوفر لك ما تحلمين به من ملذات ورغبات
باهظة !

هى : يا إلهي ! .. إنما خطر لك هذا ، لأنك تعرف أية حياة
كنت أحيائها دائما قبل أن أعرفك ، وكيف كنت أعيش
في بذخ على الدوام !

هو : ولكنك كنت تعرفين تماما من أنا ، وما هى حدود

قدرتى ، عندما تقبلت حىي ، فما كنت غنيا فى يوم من الأيام ، ومع ذلك فقد أرهقت نفسى لكى أوفر لك — بكل الوسائل — مستوى حياة كذلك الذى كنت تعيشين فيه .. ولكن بدون مبالغات طبعاً !

هى : وأنا أيضاً ضحيت — باعترافك — كى أعيش معك ..

هو : نعم ، ضحيت بالنزوات الباهظة التكاليف فقط ..

هى : وهل هذا يبدو شيئاً قليلاً فى نظرك ؟ .. هل يبدو لك أمراً طبيعياً ؟

هو : طبعاً ، ما دمت تحبيننى !

هى : هذا ما كان يغيظنى منك .. أن ترى تضحياتى أمراً

مفروغاً منه ! .. وهذا هو ما جعلنى أقف — عند مرورنا

أمام واجهة متجر الجواهر — وأتعمد أن أغيطك فقط ،

بإبداء الرغبة فى امتلاك هذا العقد ، كى أعرفك أى

شئ حرمت نفسى منه بمعاشرتك ! .. أجل ، تعمدت

هذه القسوة ، والذنب ذنبك ! كان هدفى إيلاملك

فقط .. أما شراء العقد ، فقد كنت أعلم أنك لا تقدر

عليه ، إلا إذا سرقت .. إلا إذا سرقته ، أو سرقت ثمنه من

الغير !

هو : إذن فأنت لا تريدينه حقاً ؟ !

هى : كلا ، لا أريده منك .. لا أريده منك !

فتقلب سحته إلى الغضب الشديد ، وتحمّر عيناه ، ويهجم عليها ،

فتظل تراجع لتسحاشى إطباق يديه عليها .

هو : (فى هياج) . يا فاجرة !.. لا تريدينه منى لأنك حصلت عليه من سواى . لقد خنتنى فعلا ، أيتها الفاجرة .. لقد عدت إلى عشيقك السابق ، الذى رجع بأموال طائلة من (جاوة) .. لقد رأيته بنفسى فى الشارع .. إنه لم يعاشرك بعد علانية .. لم يحضر بعد ليعيش معك ، ولكنى رأيته ..
هى : آه ، لا تقتلنى !.. دعنى !.. ليس هذا صحيحا !..
دعنى !

وبعد مقاومة ، يتمكن من عنقها ، ويلقيها على الأريكة ، ويجثم على صدرها !

هو : ليس صحيحا !؟.. لكنى رأيته يا فاجرة ! أنت تنتظرين تلك اللآلئ بعد أن طلبتها منه .. وفى تلك الأثناء ، كنت ألوث يدى بسرقة أصحابى فى النادي ، لأحصل على ثمن العقد .. لأرضى شهوتك ، وأشبع قسوتك !

وتستسلم أخيرا القبضته ، وتسكن حركتها كالهيئة .. فقد خيل إليها — فى المنام — أنها ماتت مخنوقة بيد عشيقها الغيور .. وبعد لحظة قصيرة جدا ، تسمع طرقات عنيفة على الباب .. طرقات رهيبة كتلك التى تسمع فى الأحلام . ويسود المسرح ظلام شامل ، يختفى أثناءه الرجل .. وفى الحال تبدأ الأنوار الطبيعية — أنوار الشمس — فى الدخول من النافذة . وتبدو الحجرة على حقيقتها .. حجرة جلوس « صالون » ..

والسيدة الشابة وسنانة على الأريكة . ويتوالى الطرق الشديد على الباب فتتحرك السيدة فى مرقدها ، وعندئذ يخفت الطرق شيئا فشيئا ، حتى يصبح طرقا عاديا ، كالذى نسمعه فى اليقظة لا فى الحلم .. طرقا خفيفا .. مجرد نقرات بالأصابع على الباب . وتفتح السيدة عينها ، وتنظر حولها برهة — وهى لا تزال فى غشية النعاس — ثم لا تلبث أن تصحو تمانا ، فتفرك عينها ، وتمسح وجهها ، وكأنها تريح آخر آثار الكابوس . ثم تنهض وتقف أمام المرأة فتسوى شعرها قليلا . وأخيرا ، تجيب الطارق قائلة : « ادخلى ! » . فتقبل الوصيفة حاملة صفحة صغيرة من الفضة ، عليها علبة مخملية من علب المجوهرات ، مربعة الشكل ، ومعها بطاقة زيارة . فتشير السيدة إلى الوصيفة أن تضعها على « الكونصول » ، فتفعل الوصيفة ، ثم تنصرف مغلقة الباب خلفها .



وتجلس السيدة تستعيد حلمها بخذافيره ، ثم تنهض إلى العلبـة فتفتـحها ، وتخرج العقد الذى كانت تحلم به ، فتحيط به عنقها ، وتقف تتأمل صورتها فى المرأة ، وهى تلتفت إلى الباب لتتأكد من أنه مغلق ..

وكأنها تخشى أن يظهر في الواقع بطل الحلم !.. وتحسس العقد حول عنقها ، بأصابع مضطربة . ثم تنفّس في بطاقة الزيارة .. وتعيد النظر إلى العقد ، ثم تغمض عينيها في نشوة وتنهد . ولا تلبث أن تخلع العقد فجأة ، فترده إلى الصندوق وتضع الصندوق والبطاقة داخل درج الكونفول ، وهي تنصت إلى خطوات تقترب من الباب . وعندما تسمع طرقاً عليه تقول : « من ؟ ادخلي ! » .. فتفد الخادمة حاملة بطاقة زيارة ، تلقى عليها السيدة نظرة ، ثم تقول : « أدخليه ! » .

ويدخل الرجل .. نفس بطل الحلم الذي كان مرتدياً ثياب السهرة ، ولكنه الآن في ملابس عادية ، ووجهه هاش باسم فتستقبله بكل ترحاب . ويجلسان على الأريكة .

هو : أرى من عينيك أنك نمت ...
هي : لم أكن أريد أن أنام ، ولكنني استغرقت في النوم فجأة ، بعد الغداء . (تستدرك) لا ، لا ، أبدا .. لم أُنم إلا لحظة واحدة !

وتمر بيدها على عنقها ، وهي تتذكر كيف كانت تحتق بيديه في الحلم .. ولكن وجهها لا يعكس أى أثر للكذب ، فهي تكذب بلا مجهود .. بالسليقة !.. وتحضر الخادم أدوات الشاي ، ثم تخرج ، فتظر السيدة في عيني صاحبها الذي يبدو شارداً البال .

هي : ماذا بك ؟ أهناك ما يكدرك ؟
هو : آه ، كنت أريد أن أقدم لك مفاجأة سارة .
هي : أنت تقدم لي مفاجأة ؟ ولماذا تقولها بمثل هذا التحسر ؟
هو : لأنني لم أتمكن من تقديم هذه المفاجأة ، لأدخل السرور

عليك يا عزيزتى !

هى : عرفت ماذا كنت تريد أن تفاجأنى به !.. وسأقوله لك
لتعرف أنه لم تعد بيننا مفاجآت أيها الحبيب .. (وتطوقه
بذراعيها ، وتلتصق به ، وتجعل خدها على خده وهى
تكلمه بكل حنان) أحقا إذن كنت تريد أن تتحبنى
بذلك العقد النفيس يا حياتى ؟.. ولكنك وجدته قد بيع
فعلا ، أليس كذلك ؟..

هو (مجفلا فى دهشة) : عجبا ، وكيف عرفت ؟

هى : ها ها !.. مررت مساء أمس أمام حانوت تاجر
الجوهرات ، فلم أجد العقد فى نافذة المتجر .

هو : عجبا ، ولكنه كان هناك فى الساعة الرابعة بعد الظهر ،
فقد رأيته بعينى وأنا فى طريقى إلى النادى .

هى : لقد مررت أنا بعد ذلك .. فى الساعة .

هو : ولكن لماذا قالوا إلى الآن أنه بيع فى هذا الصباح ، وليس
مساء أمس ؟

وتتصنع عدم الاكتراث ، ولا تضطرب وهى تبين ضعف
أكذوبتها .

هى : قالوا أى كلام ، ما دامت الصفقة قد تمت ، ولكن ألم
يقولوا لك من الذى اشترى هذا العقد ؟

هو : بلى . قالوا لى ولكنى نسيت الاسم .. (يضمها إليه
ويعبث بشعرها) لا بد أنك كنت تفكرين فى هذا العقد



كثيرا ، ما دمت قد ذهبت بالأمس أيضا لتريه . ولا بد
أنك كنت تنتظرين منى أن أقدمه لك !

هى : أوه ، كلا .. أبدا ! .. ولكن لا بد أنك رجحت فى اللعب
أمس مبلغا كبيرا حتى أنك ذهبت فى الصباح لتشتري هذا
العقد لى ..

هو : رجحت مبلغا طائلا . أتدريين لماذا ؟ .. لأننى كنت أتحرق
رغبة فى شراء هذا العقد لك يا حياق ! .. والآن عليك أن
تختارى شيئا آخر جميلا .. جميلا جدا ، وثمينا ، لأقدمه
إليك !

هى : أوه كلا .. مستحيل !

هو : بل يجب ، كى تزيلي عنى كدر فشلى فى الحصول على
العقد لك ..

هى : ولكنى أوكد لك أننى لم أكن راغبة حقا فى الحصول عليه

.. كانت نزوة عارضة .. ويكفينى سرورا أن كلمتى
جعلتك تكسب ، كما أن عدم وجود العقد يحفظ عليك
المبلغ . فلترك هذا الموضوع .. أرجوك ! والآن هيا بنا
نتناول الشاى .. (وتشاغل بصب الشاى فى قدحه) .
هو (كمن يحاول أن يتلمس موضوعا للكلام) : هل علمت ؟ .. قيل
لى إنه عاد من (جاوة) ..

هى : من ؟ .. (تستدرك وقد عرفت من كان يعنى) آه ، لقد
سمعت !

هو : من الذى أنباك بهذا ؟ .. ومتى عرفت ؟
هى (متظاهرة بعدم الاكتراث) : منذ ليلتين .. لا أذكر تماما من الذى
قال لى ..

هو : يبدو أنه عاد من هناك بثروة كبيرة ..
هى (فى بساطة ، معتمدة أن تتجاهل الموضوع) : هل تريد لبنا على
الشاى ، أو ليمونا ؟

هو : بل لبنا .. شكرا لك !
وتنزل الستار ، وقد خسر ضمير المرأة المعركة .. لقد ناضل
ضميرها نفاقها وخداعها فى الحلم ، ولكنها لم تكذب تعود للواقع ، حتى
استسلمت لصوت المصلحة ، ولبست قناع الرياء ، لتعيش به فى
الاجتماع ، كعهدها من قبل .



قصة تمثيلية كبرى للروائي الفرنسي المعاصر "تييري مولييه".



مسرحية مثيرة ومؤلف شاب

● إذا كان أبلغ الكلام هو ما يناسب مقتضى الحال ، فإن أبلغ مسرحية تقدمها لنا باريس اليوم هى مسرحية « تيرى مونييه » الأخيرة : (بيت الليل) . فموضوع هذه القصة هو الموضوع الذى يسيطر على العالم بأسره .. هذا القلق الذى يملأ صفحات الجرائد صباحا ومساء ، ويصطدم به فكرك كلما نظرت فى حياتك وفى مشاكلك المادية والمعنوية : فافتصادك وما تبخله من الرخاء أو القلة ، وحريتك وما تجد من ضيق أو تفرج ، وراحتك وما تحس به من أمن أو اضطراب ، وعواطفك التى تطفى على مصالحك ، أو مصالحك التى تطفى على عواطفك ، ووضعك فى منتصف القرن العشرين بين الحق والواجب ، وما أصبحت عليه علاقتك بالمجتمع وعلاقتك بالفرد ، كل ذلك مرتبط بآثار الماضى الذى لم يكد ينقضى ، وعلائم المستقبل الذى يوشك أن يحل . وهذا ما تتناوله قصة « بيت الليل » . هى إذن قصة الفرد والجماعة ، وملحمة العقل والعاطفة ، كما يحددها موقف الإنسانية فى العصر الحاضر ..

هى قصة المرأة التى تخون زوجها حرصا على حياته ، والمواطن الصالح الذى يخاصم المواطن الصالح .. هى قصة المادة التى تنكر العاطفة ، والحياة التى تأبى أن تجمد فى قوالب المادة ..

وليست طرافة الموضوع وحدها أو مناسبتها لمقتضى الحال هى التى تشير إعجابنا بهذه المسرحية . فهى بلا شك مسرحية قوية جريئة تعبر عن أزمة الضمير الإنسانى الراهنة . ولكنها فوق ذلك — من ناحية الصياغة الفنية — أثر متقن ممتاز ، قد ارتفع بها مؤلفها إلى درجات النقاء

والصفاء والترميز التي تميز في المسرح الفرنسي الكلاسيكي ، وبخاصة مسرح « راسين » .

فالمؤلف — وهو في الخامسة والأربعين من عمره — أديب واسع الثقافة ، عميق الفكر ، مرهف الذوق .. تخرج عام ١٩٣١ في مدرسة المعلمين العليا ، تلك التي أنجبت لفرنسا معظم أدبائها في الأجيال الأخيرة . وسرعان ما أدار ظهره للتعليم وللجامعة ، وفرغ للتأليف والنقد الأدبي والمسرحي ، فقدم كتابا رائعا عن راسين ، واقتبس للتمثيل الحديث بضع مسرحيات من الأدب القديم ، وما زال يحرر الصفحة الأدبية بانتظام في جريدة حية فتية هي صحيفة COMBAT وقد أخذ نجمة الآن يتألق في سماء المسرح الفرنسي بمجدارة .

بين تييرى مونييه ورأسين

● فهم تييرى مونييه عبقرية راسين ، واستكنه كيف استطاع الكاتب الكبير أن يحقق المثل الأعلى للمأساة التي لم يكن بد من أن تجرى حوادثها في يوم واحد من أربع وعشرين ساعة لا أكثر ، وفي حدود منظر واحد لا يتغير ، وأن تعرض موضوعا واحدا يحكم العقدة واضح المدار . وقد أشاد برشاقة راسين في حمل تلك القيود البلاغية العتيقة وتضييقها على نفسه ، حتى نقى فن الإنشاء المسرحي من شوائب الملابس الكثيرة الغريبة ، وسخف المفاجآت غير المعقولة ، وفوضى الحركات التمثيلية التي تطرأ من الخارج على الأشخاص والمواقف . ولمس الناقد الشاب أن راسين حقق هذا المثل الأعلى للمأساة ، لأنه استجاب قبل كل شيء لسجيته الصادقة المرهفة التي استحوذ عليها نقاء الطبيعة وبساطة الحقيقة ، فكان

أن اتخذ من العواطف وتطورها فى القلب مواضع مسرحياته ، وصور لنا النفس الإنسانية إزاء مصيرها عارية ، مجردة من ثياب الرياء والصنعة والتكلف ..

وكان القدماء يجدون موضوع مآسيهم بوجه عام فى اصطدام إرادة الإنسان بإرادة القدر . وقد نقل « تيرى مونييه » هذا الصراع من السماء إلى الأرض . أو مما وراء الطبيعة إلى الواقع ، ومن العصور الغابرة إلى العصر الحديث ، فعرض علينا فى هذه الرواية نزاع الفرد والجماعة ، وصراع النفس التى تنشأ الحرية والسعادة ضد المذاهب التى تريد إلغاء هذه الحرية وهذه السعادة فى سبيل حرية الإنسانية جمعاء وسعادة الإنسانية جمعاء .. ولكنه صرح بأنه لا يكتب فى السياسة ولا يجب أن يخوض غمارها ، وإنما اختار بعض أبطاله من الشيوعيين وبعضهم الآخر من غير الشيوعيين لأن فى تعارض هؤلاء وأولئك مادة رائعة للكاتب المسرحى . فهناك أزمة وانقسام والتحام ، والمأساة المسرحية لا تعرض إلا أزمة وانقساماً والتحاماً . وإنه ليركز هذه الأزمة فى نفر قليل ، وفى زمن قصير لا يتجاوز الساعات الثلاث التى يستغرقها التمثيل . وإنه ليحاول أن ينأى بها عن الجدل العقلى — فالمنافشات الفلسفية والمنطقية تثير ملل النظارة وتقتل الحياة الجارية على خشبة المسرح — وهو يفلح فى أن يجعل العاطفة هى المسيطرة على أشخاص قصته من رجال ونساء . وكما كان راسين يتخذ موضوع مآساته من إحدى العواطف الكبيرة — كالحب أو الوفاء مثلاً — تلتهم هذا البطل أو تلك البطلة ، فإن تيرى مونييه يتخذ موضوع « بيت الليل » من الشفقة — ويألفها من عاطفة عميقة مستحكمة عاتية !

ليس في هذه القصة الممتازة إذن — وإن أثارت سخط الشيوعيين — دعاية لأى مذهب سياسى ، فهى لا ترمى إلى إثبات فكرة أو رأى ، ولا تميل مع أهل اليمين ولا مع أهل اليسار ، وإنما تحاول أن تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية فى مأساتها الحالية ، كما صنع القدماء ، وبالأخص « راسين » .

١

● نحن فى داخل بيت واقع بين حدود دولتين من دول أوروبا الوسطى ، فمن الشرق حدود جمهورية شعبية خاضعة لأوامر الحزب الأعلى ونواهيته ، ومن الغرب حدود جمهورية حرة . ويبدو على أثاث القاعة وجدرانها آثار التلف الذى ألحقته الحرب بالمكان منذ وقت غير بعيد : كراسى بعضها سليم وبعضها مبقر ، ومائدة هى لوح من خشب فوق حاملين ، وصفائح « بنزين » فى ركن من الأركان ، وساعة عتيقة ثمينة قائمة بجوار أحد الجدران يشير عقرباها إلى الساعة التاسعة عند ارتفاع الستارة ، وتدور دورانها الطبيعى ، أى أنها ساعة مضبوطة تقرأ عليها الوقت الحقيقى . فإن أحداث الرواية تجرى أثناء الساعات الثلاث التى تستغرقها مشاهدتنا للتمثيل ، وتنقضى عندما ينتصف الليل . ونرى فى بيت الليل هذا امرأة ورجلا وفتاة . وقد جلس الرجل والمرأة — وهما من نزلاء البيت العابرين — يلعبان الشطرنج ، ووقفت الفتاة — وهى ابنة البيت — لا تعمل شيئا بل تنتظر وتصيحخ السمع .. أما المرأة فقد جاوزت سن الشباب ، هلوع ، ثرثارة ، نعلم أنها « كونتة » من أشراف الدولة الشرقية ، قد أفلحت أخيرا فى الفرار .

وعبور الحدود للالتجاء إلى الغرب ، بعد أن نكل الفلاحون بزوجها « الكونت » الذى كان سيدهم الجبار ، وثأروا منه بأن خلعوا عليه جلد خنزير برى وأطلقوا عليه كلابا ضارية فمزقته إربا إربا ! وأما هذا الرجل الذى تلاعبه — ويدعى أدلر — فيصغرها سنا ولكنه يكبرها رصانة وجدا ، قليل الكلام ، لا يكشف اللثام عن شخصيته ، ولا يكاد يرحب بتوددها إليه وإقبالها عليه ، إقبال المرأة التى انصرف عنها الجميع ، على رجل قد يشفى نفسها مما تجدد !

لكن الرجل قلق لتغيب رب البيت « كلوسوفسكى » الذى خرج تحت جناح الظلام والضباب للقاء بعض اللاجئين من الشرق وإعانتهم على عبور الحدود ، ونحن نشاطره هذا القلق إذ نسمع طلقات نارية ونباح كلاب خارج الدار ، وإذ نسمع أقوال الفتاة « ليديا » — وهى التى اعتادت كل ليلة قدوم نزلاء يفلتون فى عناء من رجال الحدود الشرقية — تشرح لأدلر ماذا يعنى إطلاق الرصاص وماذا يعنى نباح الكلاب ! وها هى ذى تهرع إلى المصباح فتطفئه ، فقد استتجست أن اللاجئ قد اقتربوا من البيت ، وخير لهم ألا يسطع عليهم نور الدار فيظهرهم لرجال الحدود الذين يرمونهم بالرصاص من بعيد ، ويعلمو فى الخارج صوت « كلوسوفسكى » كالمستغيث داعيا « ليديا » إلى التعجيل بفتح الباب . وفى الظلام يسرع اللاجئون ومضيفهم بالدخول . ثم يضاء النور فترى القادمين وعليهم علائم الاضطراب والفرع ، لاهئين مروعين ، يستردون علائم الاضطراب والفرع ، يلهثون مرتاعين ..

ويسألهم كلوسوفسكى هل سلموا جميعا من طلقات الرصاص ؟

فيجيبه أحدهم — « هاجن » — بأنهم قد نجوا جميعا ، ولكن رفيقه ضل الطريق . بيد أن كلو سوفسكى يصب خمرًا ويشرب غير عاينء بشيء . وتخرج ليديا للبحث عن الفتى الضال . وما أرخص الحياة على الحدود ! لن يكون ذلك الفتى المفقود آخر لاجيء يهلك ولا أول لاجيء ينجو . ففي كل ليلة ، ولا سيما في الليالي الحالكة ، يزحف على بطونهم عبر الأسلاك الشائكة مئات من أهل تلك المناطق الشاسعة الممتدة من شواطئ البلطيق إلى جبال بوهيميا ، لاجئون من جميع الطبقات ، ضابط من الجيش القديم ، وأشراف وأغنياء ، وسجناء أفلحوا في الفرار من معتقلاتهم ، وعمال ، وفلاحون طردوا من أراضيهم ، أولئك الذين يهربون من الجوع وأولئك الذين يهربون من الخوف .. وكثيرا ما تكون بينهم عائلات مؤلفة من خمسة أفراد أو ستة ، قد لا يصل منهم إلى هذا البيت إلا اثنان أو ثلاثة ! ألم تبلغ الدار ذات ليلة امرأة تحمل على كتفها طفلها وقد كملت فاه بملفعتها لتكتم صياحا خليقا بأن يفشى أمرها ، وحين كشفت وجهه وجدت أنها أسرفت في تكميمه وأنه قد فارق الحياة منذ ساعات طوال ؟!

وتدخل ليديا مقتادة « كراوس » ممسكة بيده . وإنها لتنظر إليه برهة قبل أن تترك يده ، ثم تنظر إليه نظرة أطول ، فهي لم تر وجهه في الظلام المطبق خارج الدار . وتدعوه إلى الجلوس بجوار المدفأة ، ثم تسأله هل يرغب في تناول شراب ما ، فيحسده رفيقه « هاجن » على هذه العناية التي لم يلقها سواه . وتحسد « الكوننة » تلك الفتاة الرقيقة على صيدها الثمين ، سائلة إياها في خبث هل تصيب فتى وسيما كهذا كل ليلة ،

فتستدير « ليديا » وتخرج كالغزال النافر .

ويقص كلوسوفسكى قصتها ، فهي ليست ابنته ، وإنما هي صبية . جرفها إلى ذلك المكان سيل من اللاجئين في نهاية الحرب عام ١٩٤٥ . وكانت تلك الدار قد فقدت أهلها ، وكان هو قد فقد داره ، فالتقط الصبية المتخلفة من جمهور الهاريين ، كما التقط صفائح البنزين والساعة ، وأث البيت بها جميعا . وكانت ليديا إذ ذاك في نحو العاشرة من عمرها . لم تقل له قط ماذا رأت قبل أن تلقى الأحداث إلى الحدود . لعلها رأت قريتها تحترق ، وأهلها يتلظون في نار ذات لهيب .. ولا بد أنها رأت أشلاء متناثرة في كل مكان ، وجنودا بوسائل ينتهكون أمها ، وينتهكون عذارى القرية ولا حول لهن ولا قوة !

على أن مصير هذه الشرذمة الحالية من اللاجئين مصير غامض مجهول . فلئن كانوا قد اجتازوا الحدود الشرقية فإنهم لم ينتهوا بعد إلى أرض الجمهورية الغربية . والجمهورية الغربية قد أغلقت حدودها في وجه الجميع منذ ثمان وأربعين ساعة ، ظنا منها أن جارتها الشرقية قد دست إليها عددا من الجواسيس ، أو عجزا منها عن إيواء هذه الحشود الجائرة من الناس . على هذه الشرذمة إذن أن تقضى الليلة في هذا البيت ، وإن غدا لناظره قريب ..

ويصعد بهم كلوسوفسكى ليرشدهم إلى غرفهم ، ولكن « فرانز ورنر » و « كاترين » — ولا نعلم من أمر هذين اللاجئين شيئا بعد — يقيان ليتحدثا فيما بينهما حديثا خاصا يكتمان عن الآخرين . لم تكن كاترين تعلم إلى أين سيمضى بها فرانز ، فقد سألتها منذ بضعة أيام أن تأتي

معه دون أن يستطيع مفاتها بسبب رحيله ولا بوجهته . ولقد وثقت به ثقة عمياء لأنها تحبه ، وإن كانت تعاتبه في رفق على ما ساوره من قلق ومن شك في إخلاصها ، إذ خطر له أنها قد تكون من جواسيس الحزب عليه ، غير أنه يؤكد لها حبه بما فعل وما يفعل . فهو يريد أن يتشلها من عالم الغدر والتميمة والريبة ، من عالم يحذر فيه الزوج زوجته والأخ أخاه ، من عالم يتهم فيه الولد أباه بالخيانة على رؤوس الأشهاد ويدعو المحكمة إلى إعدامه ... من عالم يشترى فيه المرء حياته — بل أياما معدودة من حياته — نظير هوانه وتحقير نفسه . ها هما يديران ظهريهما لذلك العيش الرهيب ويقبلان على الطمأنينة والقرار والسعادة ..

ولكن كاترين تشعر بأنها اقترفت ذنبا ، وبأنها تختلس السعادة اختلاسا . فإن للسعادة ثمنا لم تدفعه هي . ذلك أنها انتزعت فرانز من أحضان زوجته « ليز » ، لكنها تخشى أن يظل محتفظا بشيء من عاطفته الأولى .. فإن المرء لا يدير ظهره لماضيه كما يديره لحدود بلد من البلاد ! وإن ذكرى تلك الزوجة خليقة بأن تلاحقهما وتفسد عليهما أصفى الأيام المقبلة . وهنا يعترف فرانز بأنه قد أمسى خالص النية مرتاح الضمير ، فقد عرض على امرأته أن ترحل معه — وإن كان ذلك تهورا منه — أفليس بين الزوج وزوجته ، مهما كانت الظروف ، واشجة عميقة من الألفة والنضامن والبؤس المشترك تجمعهما دائما كما تجمع السجينين المكبلين سلسلة واحدة يجرانها معا في كل خطوة نحو الموت ؟ بيد أن « ليز » امرأة ضئيلة الفكر ، ضيقة الأفق ، لا تقدر كبار الأمور ، ومن طبيعتها أن تزحف لا أن تطير . بذلت كل جهدها وعنادها لتعيد

الوفاق بينه وبين رجال الحزب ، لا عن اقتناع منها بأن رجال الحزب على حق ، بل تلافيا للأخطار التي يتعرض لها زوجها الوزير ، وتجنباً للعقبات التي لا بد أن تقوم في سبيله إذا هو جهر برأيه وأظهر استقلاله . ولو أنه أطاعها لظل قويا في مركزه السياسى ، جبان النفس مستعبدا ذليلا في واقع الأمر . وكان لإلحاحها عليه وحرصها على السلامة وتشبثها بالباطل أثر الداء المعدى ، فقد كان يدوى في خاطره أحيانا صدى ما تلقته ، ولم يكن له بد من الفرار لتوقى تلك العدوى . فتسأله كاترين :

— أفلم تحبها قط ؟

— أين يبدأ الحب وأين ينتهى ؟ إن الأمور ليست بهذه البساطة ، حتى بالنسبة لجسمين يتحدان . ومن ذا الذى يستطيع أن يشرح جميع ما يثور في ضمة جسمين من الضيق إزاء الوحدة وإزاء الموت .. من الهزل ، ومن البغض .. من الحنان ومن الإهانة .. من الرحمة ومن الوجد ؟

— إذن فقد كانت جزءا منك . ألا ترى أننى فى حاجة إلى أن أحس

بأنها عدو ، وأن أتوقع من ناحيتها الخطر علينا ، ولا سيما الآن ؟

فياخذها بين ذراعيه ، ويحاول أن ينسى الزوجة المهجورة وأن يذكر اغرامهما . ويغمرها البشر إذ يفكران فى أنهما مقلبان فى غدتهما على أوروبا ، فإن الدنيا الآن لهما ، من ألمانيا التي نضرت بمدنها الجديدة كالغابة استعادت حضرتها بعد حريق ، إلى باريس التي تمد قصورها الزاخرة تحت سماء الإخاء الإنسانى ، إلى إنجلترا التي تبرز صخور شطآنها من الضباب كذهب تاج يطفو على صفحة البحر ، إلى إيطاليا الغنية — رغم فقرها — بنور الشمس وبهرج المرمز وأغانى الفرح ..

ويفيقان من حلمهما اللذيذ على صوت امرأة تستغيث في خارج الدار ، صوت سمعته « الكوننة » أولا ، ثم سمعه رب البيت فهبط يستطلع الأمر تصحبه ليديا . ويكره العاشقان أن يزدحم القوم من حولهما فيقطعوا عليهما نجواهما . ويصعدان إذن إلى غرفتهما . ولا يلبث كلوسوفسكى وليديا حتى يعودا من الخارج ومعهما امرأة في حالة إعياء شديد ، لا تكاد تملك القدرة على الكلام . فيقدمان لها قدحا من الخمر تحسوه جرعة جرعة ويعود إليهما صوابها . عجيب أمر هذه المرأة ! فإنها عجلة تريد أن تواصل طريقها في الحال لتبلغ بيت كلوسوفسكى ! ويندهش الجميع إذ يرون من حديثها أنها قد عبرت الحدود الشرقية بسهولة إعجازية ، وأنها لم تدرك بعد أنها انتهت فعلا إلى بيت كلوسوفسكى ، وأن كلوسوفسكى هو هذا بعينه الذى يخاطبها . إذ ذاك تسأله هل أتى لديه الليلة رجل ؟ فيجيبها ساخرا : بل رجال كثيرون ! ولكنها تبحث عن رجل واحد ، رجل أسمر ، طويل القامة ، تصحبه فتاة . إنها تريد أن تراه ، وأن تراه بمفرده . فيصعد رب الدار ليدعوه . وتنصرف الكوننة مع أدلر ليستأنفا مباراة الشطرنج . ويقترب الرفيقان « هاجن » و « كراوس » ويحتلان صدر المسرح .

ويتضح لنا من حوار الرفيقين أنهما من أعضاء الحزب في الدولة الشرقية ، وأنهما أقبلا للقيام بمهمة خاصة — وإن كانا لا يعرفان ماذا سيؤديان على وجه التحديد ! — على أن لكل منهما شخصيته وصفاته . فهاجن رجل يشعر بالحياة من حوله ، ويتكلم ، ويتسمم ، ويعلق على كل شيء تعليقات إنسانية صريحة . وأما كراوس ففتى ساكن صارم ،

لا يتكلم كثيرا ، لأنه لا يفكر كثيرا ، ولا يرى في الحياة إلا طريقا واحدا
مرسوما هو طريقه ، الخبز الأعلى . يستبشر هاجن في شيء من السخرية
بأن رحلتها الشاقة لا تخلو من ترفيه ، فها هي ذى امرأة ثالثة تفد إلى
البيت . وهو وإن كان يعرف شخصيتها إلا أنه لا ينظر فيها لغير
« المرأة » . على حين لا يرى فيها كراوس — وهو يجهل شخصيتها —
إلا واحدة من الطبقة « البورجوازية » تبدو عليها التفاهة ، ولا يأسف
على أن تلوذ هي وأمثالها بجمهورية الغرب ، إذ ينبغي أن يتخلص الشرق
من تلك الطبقة على كل حال . ومعرفة هاجن بها معرفة جيدة . فقد سبق
له أن راقصها مرتين أو ثلاثا بل وطارحها الغرام ، تنفيذاً لأوامر
صدرت إليه . فيسأله كراوس :

— من تكون ؟

— لا غناء فيها . إني متأكد من أنك تفضل ليديا .

— ليديا ؟

— ليديا التي هدتك سواء السبيل في الظلام والضباب والخطر .

— ألا تظن أننا نستطيع أن نتحدث في جد الأمور ؟ أترى أن نظل

محاصرين في هذا المكان ؟

— وما العمل ؟ إذا نحن حاولنا أن نتسلل خلال الحدود الغربية تعرضنا

لخطر الاعتقال وانكشفت حقيقتنا . أليس من الخير أن ننتظر وأن نخفى

عن العيون ما استطعنا ؟ هل لديك تعليمات عن المهمة ؟

— كلا . اسم وعنوان فقط . وهناك سيقولون لى ماذا أفعل .

— وأنا مثلك ليست لدى معلومات أكثر .

— هذا أفضل . فنحن متى صرنا بين أهل الغرب أصبحنا على أرض العدو ، وخيرا فعل رؤساؤنا إذ حمونا من أنفسنا بكتان سر المهمة عنا !
— نعم ، لا ثقة الآن في أهل الثقة .

— وإنهم على حق ، فالقاعدة هي ألا تثق في شخص قط . إنك تعتقد أنك موضع للثقة ، وإنى أعتقد أننى موضع للثقة ، ولكن قد يحدث أن نتورط كلانا في الخطأ !

— أنا أحب على الأقل أن يستخدمونى حسب اختصاصى .
— حسب اختصاصك أم حسب ذوقك ؟ إن الجمهورية الشعبية لا تسألنا أن نصنع ما نحب ، بل أن نصنع ما يجب !

— ألا تعتقد أن المرء يجيد ما يصنع إذا هو صنع ما يجب ؟
— ينبغي أن يصنع المرء أيضا ما لا يجب ، وأن يجيده نفس الإجابة !
— أهذه هي أول مهمة تهض بها في الغرب ؟

فلا يجيب كراوس ، بل يتجه إلى النافذة ، ويحاول أن يغير مجرى الحديث . إلا أن هاجن يذكر ما اجتازا من هول عند عبورهما الحدود الشرقية ، ويبدى دهشته من أن الحزب لم يبنى رجال الحدود لكى يفسحوا لهما الطريق ، بدلا من إطلاق الكلاب عليهما وإطلاق الرصاص .. ولكن كراوس يرى في ذلك حكمة التمويه على أصحاب الحدود

الغربية . ثم يدعو هاجن صاحبه إلى الشراب فيرفض :

— إنى لا أشرب قط ، ما لم أتلق أمرا بالشرب .

— ولا في مناسبة غير اعتيادية ؟

— ليس في حياتى مناسبات غير اعتيادية .

- سيأتى يوم مماتك !
- يوم مماتى يوم عادى .
- ليكن . أما أنا فأشرب ، أشرب نخب ليديا ..
- ما دام ذلك يلهيك .
- ... ونخب الرجل الخطير الذى يشرفنا بالنزول معنا الليلة فى هذا البيت المتواضع .
- أى رجل خطير ؟
- زوج الباكىة الحسناء : « فرانز ورنر » !
- فرانز ورنر ؟ رئيس جماعة « الاشتراكيين الأحرار » ووزير الدولة ؟ .. إنك تهزأ بى !
- لقد كسبت الرهان . فقد راهنت نفسى على أننى سأخرج كراوس من سكونه وأراه مضطربا .
- فرانز ورنر .. هارب إلى الخارج ؟
- فيما يبدو ..
- أما استطعت أن تنبئنى من قبل ؟
- أماننا متسع من الوقت ، فإن الحدود الغربية مغلقة دوننا جميعا ..
- ينبغى يا هاجن ألا يعبر فرانز ورنر إلى الخارج !

● ما أقسى لقاء المرأة المهجورة بزوجها الهاجر ! وأيهما الذى يقسو على الآخر ؟ لكل منهما نفسه ومشاعره وموقفه .. فكلاهما عادل فى جوره ، جائر فى عدله ! هذه « ليز » متولدة ملتاعة ، تنفث وجدها . تقول لفرانز إنها اقتحمت الأهوال لتلحق به ، وإن اجتراحها كأس الموت لأهون عليها من الرضا بفراقه !.. لكن « فرانز » لا يلين لها ، وهو الذى لم يستطع طوال حياته الزوجية أن يميز حديثها الصادق من حديثها الكاذب ! فتقسم له أنها تقول الحق ، وتستغفره وتستعطفه .. ثم تسأله .. تكون تلك المرأة التى اصطحبها فى فراره ؟ وتجب نفسها بأنها لن تكون سوى سكرتيرته فى الوزارة ، عشيقته كاترين ! وبماذا عساها تمتاز عليها ، هذه الكاترين ؟ أتمتاز عليها بالصبا والجمال ؟ ربما كانت أرق خلقا ، وألطف طبعاً ، وأثبت جأشاً . ولا بد أنها من النساء البارعات فى فن اجتذاب الرجال وتسييرهم وراءها .. ما الذى أعجبك فيها ولم أقدمه إليك ؟

وتتدفق عبارات المرأة المكشوفة كأنها تهذى ، وزوجها صامت يسمع ولا يقول لها شيئاً .. حتى تستدرك قائلة :

— كلا ، بل كل ما هنالك هو أنها أشد منى ثقة بنفسها ، تستطيع أن تخفى جزعها ، وأن تكتم ألمها . قل لى ماذا أعجبك فيها ؟ فإنى لأستطيع

أن أصبح جديرة بك يا فرانز لو أنك رغبت في معاونتى على ذلك قليلا .
سأقرأ كتبك . إننى منذ وقت طويل أريد أن أقرأها . ولسوف تشرح لى
الصعب منها .. إنى .. إنى سأحاول أن أشبهها !

فيستنكر زوجها منها أنها تمثل أمامه دور المرأة المهجورة ، مع أنها هى
التي انصرفت عن حبه منذ أعوام ، وجهرت له بذلك ، وتمادت في حماقتها
فخانت عهده وارتبت في أحضان غيره من الرجال ، وحالفت خصومه ،
وأرغمته على الحد من حريته واستقلاله . أما هى فتعذر عما سبق من
التماسها لرجل سواه بحاجتها إذ ذاك إلى من يجعلها تحس بالحياة ، بينما كانت
شواغله هو تستأثر به من دونها .. وتعتذر له عن معارضتها لآرائه بالخوف
الذى كان يدفعها إلى استرضاء ذوى السطوة والبأس الشديد في الدولة .
ثم تخبره بأنها قد مهدت الأمور لانضمامه رسميا إلى الحزب ، وما عليه
إلا أن يعود إلى الوطن . فيجيبها في حزم :

— عبثا تحاولين . لقد رحلت لأنه لا يوجد في الشرق مكان لى
ولا للآراء التي أدافع عنها وأريد الدفاع عنها .

— آراؤك ! آه .. أتعرف أنت ما هى آراؤك ؟ ومن أين استقيتها ؟
هل هى خير من آراء الآخرين ؟ إنى أقر أن يترك المرء كل شيء في سبيل
مبادئه إذا لم يكن صاحب أسرة وصاحب بيت وصاحب مال ، إذا كان
مجرد طالب أو عامل ، إذا لم يكن له في دنياه شيء ! أما أنت ! .. إنى على
كل حال عالمة بآرائك ، فأراؤك هى تلك المرأة !

وينفجر سخط المرأة التي لا تفكر إلا بعاطفتها . ولو أن زوجها كان
راحلا بمفرده لكان عليها الأمر . فهى لا تستطيع أن تحتل وصاله لامرأة
(أوديب الملك)

سواها ، وترفض أن تعود أدراجها خشية أن يثار منه قادة الحزب في شخصها ! وهنا يعرض عليها فرانز أن تصحبه إلى الغرب ، ويعرض عليها ذلك أصالة عن نفسه ونيابة عن كاترين التي ستصبح زوجته ، فتثور ليز في وجهه ، وتلجأ إلى استخدام سلاحها الأخير ، سلاح التهديد والوعيد ، وتنبيهه بأنها أبلغت أمره في خطاب عاجل أرسلته إلى صديق لها من رجال الحزب ، وأنه سيصبح تحت طائلة بوليس الدولة منذ أن يتسلم الرجل هذه الرسالة في بريد الصباح . إذن ليس له من مفر ما دامت الحدود الغربية مغلقة دون الجميع ، ليس أمامه إلا سواد الليل يتخذ فيه قراره بالعودة . إذا كان يفضل العودة وزيرا على العودة معتقلا !

إذا ذاك يتخلى الزوج عن زوجته .. ينبذها ويطردها عنه ، فتتوارى .. وينادى كاترين فيخبرها بما حدث ، ويفضى إليها بأنه تأكد من أن كلوسوفسكى لديه تعليمات خاصة بشأن مرورهما بمجرد أن يبرز له بطاقة معينة . وتبدو ليديا ، فيسألها في الحال أن تدعورب البيت . ويحضر كلوسوفسكى . ويطلعه فرانز على البطاقة ، فيخرج وريقة من جيبه ويقرأها ثم يقول :

— ستكون التعليمات الخاصة بكما بين يدي الضابط الذى يتسلم حراسة مركز الحدود الغربية في الساعة الحادية عشرة . لا جمر لك ولا معسكر ، بل الفنادق في انتظاركم . إني واثق من أنكما لا تفضلان الاستمتاع بضيافتي أطول مما ينبغي ، موعدى معكما هنا في الساعة الحادية عشرة إلا الربع لأخرج بكما إلى الحدود . واحرصا على ألا يعلم بالأمر أحد من النزلاء !

ويخرجون من القاعة بينما تدخل الكوننة ، وقد فرغت من مباراة الشطرنج ، تسأل ليديا أن تسقيها كأسا من شراب قوى . وتشرب ، وهى تسدى إلى الفتاة الرقيقة نصيحة امرأة مجربة : إن « كراوس » فتى وسيم لا ينبغي أن تدعه « ليديا » يفلت من يديها . عليها أن تسعى إليه ، وأن تبدأه بالتحية ، وأن تخاطبه بعبارات الإطراء . فإن الحياء والتحشم مما يضيع أثمن الفرص . وليس أفضل من أسلوب إمبراطورة روسيا الشهيرة « كاترين » ، تلك التى كانت كلما أعجبها فارس جميل استوقفته وقالت له « ترجل عن حصانك وتعال معى » ... ولكن ليديا تشك فى أن كراوس هو فتى أحلامها الذى تنتظره ، لأن ذلك الذى تنتظره سوف يقف ويترجل عن حصانة بجوارها دون أن تومىء إليه ، بل ولن يكون لها من أصحاب الجياد ، ولسوف يقف أمامها من تلقاء نفسه ! على أن الكوننة تلقى إليها حكمة الواقع الخبيث :

— ليس الفتى الذى تنتظره هو الذى يتوقف ويسعى إلينا ، وإنما هو الذى يمر بنا دون أن نرمقه بنظرة . وأما ذلك الذى يتوقف فهو دائما فتى آخر غير الذى تنتظره ...

وتلمح كراوس مقبلا ، فترك « ليديا » وحدها معه كى تطبق ما نصحتها به ... لكن كراوس يحيل بصره فى القاعة ثم يعبرها خارجا ، فتدفع ليديا نفسها دفعا لتخاطبه ، سائلة إياه هل يبحث عن شخص معين ؟ فيجيبها بالإيجاب .. لكن هذا الشخص الذى يلتمسه ليس شخصها كما كانت تتمنى ، بل هو السيد كلوسوفسكى ، فتتطوع لخدمته فى البحث عن صاحب البيت ، دون أن تتحرك من مكانها ، فإنها فى الواقع

راغبة في البقاء حيث هي — أى حيث هو! .. ويرى الفتى منها ذلك فيملاً فراغ الوقت بشكرها على هدايته السبيل في الظلام حين ضل في بداية الليلة . ثم يسود الصمت ، ويهم كراوس بالخروج ، فتسأله ليديا ما اسمه ، لأنها تحب أن تعلم من يكون ..

— وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص إذا عرف اسمه ؟
— منذ وقت قصير ، في الظلام ، كنت أقودك ممسكة بيدك . وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص إذا أمسك بيده ؟ ومع ذلك ، فالمرء يجد الرضا أحيانا إذا أمسك يدا في يده . وقد يكون الاسم كاليد ، يد هذا الشخص في غيابه ..

رقة وطية وثقة غريرة ، يقابلها الجفاف والحذر والمكر ! هذه الفتاة تريد أن تفضى بذات نفسها ، فيستغل الفتى إقبالها عليه ، ويقف منها في لحظة على سر انفتاح الحدود الغربية لقرانز وكاترين بعد ربع ساعة ! وإذ ذاك ينصرف عنها ويسرع إلى الاجتماع برفيقه ليتداولوا ويحسما الموقف .

وبعد نقاش عسير يقرر الرفيقان أن يمضى كراوس لإخطار البوليس الشرقى ، على حين يمكث هاجن في بيت الليل ليستبقى الوزير ريثما يحضر من يعتقله !

ويظهر كلوسوفسكى ، فيطرى هاجن أمانته ونزاهته ووفاءه بالوعد ، ملمحا إلى الموعد الوشيك الذى ضربه لرجل وامرأة من النزلاء سوف يصحبهما بعد دقائق ليجتازا الحدود الغربية . ثم يدعوه إلى المقامرة في مباراة قصيرة لا تستغرق ثلاث دقائق ، مغريا إياه بكسب مبلغ ضخـم

من المال . فيجيب كلوسوفسكى دعوته ويتبادل الرجلان إلقاء « الزهر » وإلقاء الكلام . ويدور حوارهما موازيا للعبهما ، سريعا مقتضبا محكما . كل رمية تشير إشارة مباشرة إلى درجة من أطوار الربح والخسارة إذا نظرنا إلى هذين الغريمين ، وترمز من ناحية أخرى إلى موقف من المواقف بين النجاة والهلاك إذا فكرنا في مصير العاشقين الهاربين ! ويضرب هاجن على جميع الأوتار ، فيوحى إلى كلوسوفسكى فى أثناء اللعب بأنه إنما يؤدى خيرا ومعروفا ويحمى رابطة الزواج المقدسة لو هو منع ذلك الزوج من الفرار ، ثم يمنحه فى النهاية مال الرهان منحا رغم نتيجة المباراة . ويفهم كلوسوفسكى أن ذلك المبالغ — من يد غريم جواد أتقن الغش فى القمار — ثمن لتمهله المشود مدة عشرين دقيقة ، ويخرج صاحب الدار راضيا ليتوارى طوال الدقائق العشرين التالية ، بعد أن يرسل ليز إلى هاجن وفقا لطلبه .

وتسعد ليز بهذا اللقاء المفاجىء ، وتظن أن هاجن لم يأت إلى ذلك المكان إلا لإنقاذها ، وأنه يخلص لها الحب . ويوحى إليها هاجن ، وهو يحصى الدقائق أمامها ، بأن البوليس يتعقبه هو أيضا ، ولكن النجاة مكتوبة لهما معا إذا هى أفلحت فى تعطيل فرانز وكاترين وسبقتهما فى صحبته إلى الحدود الغربية لاجتيازها بدلا منهما ، فإن رجل الحدود لا يعلم من يكون العابران وإنما عليه أن يفسح الطريق لرجل وامرأة معا . ويلقنها الدور الذى يجب أن تمثله فى الحال : فعند نزول فرانز وكاترين — أى بعد نصف دقيقة — تتعرض لهما شاكية ، باكية ، لاعنة ، متشبثة بزوجها ، فيتدخل إذ ذاك هاجن ليصلح ما بينهما وينصح الرجل بإعطاء مهلة لزوجته ، وعلى التو يلحق بها ويرحلان ..

● وهكذا يدور المشهد التالى . وتتقن ليز التذلل . والتضرع والانتحاب إلى درجة تشككنا فى كذبها وتثير عطف غريمتها كاترين عليها . ثم ينفرد هاجن بفرازز ، بينما تخرج ليز من أحد الأبواب ، وتخرج كاترين من باب آخر باحثة عن كلوسوفسكى .

ويدير الرجلان بينهما حوارا زاخرا بالمعاني ، تتلاطم فيه الفكرة بالفكرة ، ويصدم فيه العقل الشعور ، ونسمع خلاله صوت الضمير الإنسانى واضحا رغم هذا الاضطراب وهذا التنازع المحتدم . وقد يعيب الناقد على المؤلف إطالته لهذا المشهد ، فقد بلغت الرواية لحظاتها الحاسمة ، وهى لحظات قصيرة عصبية متوترة لا تحتمل الإبطاء ولا تحتمل الجدل فى القضايا الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية . ولكن المؤلف يريد فى هذه اللحظات الهامة الخطيرة أن يصب خلاصة موضوعه وأن يسجل رأيه ، أو بالأحرى آراء هذين الرجلين المتعارضين — وكل منهما يمثل إحدى الكتلتين اللتين ينقسم إليهما عالمنا اليوم — وأما من ناحية الصياغة المسرحية فلا غبار على الموقف ، ومن حق المؤلف أن يطنب فيه ، لاننا نعلم أن هاجن يرمى إلى تضييع الوقت وتقويت الفرصة على فرازان !

يدافع هاجن عن ليز ، ويبين لفرازز أن من واجب الزوج ألا يتخلى عن زوجته .. فيرتاب الأخير فى أمر العلاقة القائمة بين امرأته وبين هذا الرجل . ولكن هاجن ينفى الرية :

— كلا ! لم تكن خليلتى ، وإن كنت قد قابلتها مرارا . ذلك أنك كنت منصرفا عنها ، وهيمات أن تتحمل المرأة الوحيدة عبء وجودها . لقد جذبنى نحوها ، ما وجدت فيها من الحاجة إلى محضرى . إن النساء لا يحببن الرجال بقدر ما يحببن الشعور بأنهن شئ مذكور لدى الرجال . والرجال لا يحبون النساء بقدر ما يحبون الشعور بالسيطرة على النساء ... متى تم زواجك بها ؟

— منذ عشر سنين .

— إذا عاش المرء عشر سنين بجانب امرأة ، كان هو المسئول عما تؤول إليه !

— لا يا سيد هاجن ! كل مسئول عن نفسه ، كل حبيس جلده فى السعد وفى البؤس وفى الموت ، بل وفى الحب أيضا ، عبثا يحاول أن يتضامنا . ماذا عسائى أفعل من أجل ليز ؟

— أن تظل معها ، أن تقف بجانبها فى المحنة . لقد وشت بك زوجتك . وأنت تلقى عليها وزر فعلتها كما يعلق امرؤ فى رقبة الضحية حجرا ثقيلا ويقذف بها فى البحر . هل الإنسان بأكماله مجرد فعل صدر منه ؟ ألا تجد فى ليز أيضا تلك المرأة التى سكنت إليها ، وتأبطت ذراعك فى نزهاتك ، ومددت إليها يدك أثناء النزهة فى الريف لتعينها على عبور مجرى جارف ؟ ألا تجد فى ليز تلك المرأة التى حلمت بك فى غيابك عنها وسعدت بك بعض الليالى فى وجودك معها ، تلك المرأة التى كان النوم يحيل وجهها بجوارك إلى وجه طفلة بريئة . إن هذه الطفلة هى التى تريد أنت إلقاءها فى البحر !

— بأى حق يؤاخذنى رجل من رجال الثورة على عدم اكتراثى بامرأة
ضمن ملايين من النساء ؟ حدثنى عما يعنيك . حدثنى عن الشعوب ،
ما دمت لا تتكلمون إلا باسم الشعوب . حدثنى عن هذا العالم الجديد
الذى تشيدونه بالعنف والأمل ودم الضحايا ، ولا تحدثنى عن ليز ..
وما قيمة امرأة لديكم ؟ ما قيمة ألف بل مائة ألف من البشر ؟ هل تنكر
معسكرات الأشغال الشاقة ، تزجون فيها بمن تسمونهم المعارضين
والخونة والفاترين ؟ هل تنكر نفى القوم من أرضهم حتى أقفرت أقاليم
كاملة ؟ هل تنكر الإرهاب الذى يدفع الآلاف من الرجال والنساء إلى
عبور الحدود ، رغم تهديد أبراج المراقبة والأنوار الكشافاة والمدافع
الرشاشة وكلاب الصيد التى دربتموها على قنص الإنسان ؟ إنكم
تدافعون عن الإنسانية ضد الناس . وإذا كان مبدؤك قتل الخصوم والمشتبه
فيهم ، أيا كان عددهم ، وإلى أجل غير مسمى ، فكيف تسألنى أن أدرأ
عن واحدة من البشر شيئا من الألم ؟ ألا ترى يا سيد هاجن أنك كمن
يدعو إلهها ولا يؤمن به ؟

— أخطأت فهمنا يا سيد « ورنر » . إننا نقتل لأننا متأكدون من أننا
على حق . ولسنا مؤمنين ، فالمؤمن لا يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أنه
يؤمن . لقد كشفنا المعنى الذى يستطيع الإنسان أن يصوغ الدنيا فيه ،
وإننا متأكدون من أننا كشفناه . لسنا نؤمن بإيماننا ، بل نثبت إثباتا . وأود
أن أعلم باسم أية حقيقة قاطعة أنت تضحى بليز . إنك تضحى بها فى
سبيل سعادتك الشخصية الصغيرة ، أى فى سبيل لا شيء ... وأنت
شخصيا لم تكن فى خطر مباشر ، فلماذا ترحل ؟

— لأنى أصبحت أرى التعاون بين حزبكم وبين الأحزاب الحرة مستحيلا .. لأن غايتكم خلاص الناس ووسيلتكم هوانهم !
— إن الدبابات أثناء الحرب تسحق زهر الحقول الغض ، وإنها لخسارة . وخسارة كذلك الأبدان البشرية . غير أننا لا نستطيع فى سبيلها شيئا . فالثورة ينبغى أن نصنعها من أجل الناس ، وفى الوقت نفسه بالناس وضد الناس . قتل وتقتيل . علينا ازدراء الناس إذا أردنا أن نجهم حبا ينفعهم . وعلينا أن نهدم ، فلن نهدم العبودية ما لم نهدم سادة العبيد والعبيد الذين يحاربون فى صف السادة .

— ومع ذلك فقد انهدمت العبودية منذ نحو عشرين قرنا ، وهدمها حب لم يحمل سلاحا . ذاك لم يقتل سادة العبيد ، بل قتل العبودية فى ضمير السادة !

— ما دامت إحدى صور العبودية قائمة ، فذلك لأن الحب الذى نتحدث عنه لم يكن كافيا .

— ولكنه كان حبا . أنريدون الهدم فى سبيل البناء ؟ أولئك ملوك آشور الذين شيدوا الصروح والقلاع كانوا يبنون جدرانا يسدون بها أبواب الصوامع التى يلقون فى غياها سجناءهم أحياء . وكذلك تفعلون بضحاياكم فيما تنشئون من المصانع والمدن الجديدة . إنى لا أريد سدوكم ، لا أريد مصانعكم ، لا أريد مدنكم حيث آلاف من العيون مفتوحة إلى الأبد تتطلع إلى الأحياء من خلال جدران كثيفة ..

— وعيون ليز ، يا سيد ورنر ؟

— عيون ليز ؟

— لسوف تلاحقك صورتها . سوف ترى جثة واقفة ، مفتوحة العينين ، داخل جدران بيتك الوثير في فرنسا أو أمريكا . ولعل نظرات تلك الجثة لا تضايقك ، ولعلها لا تضايق صديقتك كاترين ..

— إنك محام بارع يا سيد هاجن !

— لكل شيء ثمنه . لا سعادة ولا حرية بلا ضحايا . فهلا أنصفتنا ، نحن رجال الحزب الذين لا نتقاضى الثمن المرقوم ؟ إننا لا نعمل من أجل أنفسنا . إننا نقتل ، نعم ، نقتل لأن لنا عالما نريد أن نحياه ، لأننا نريد أن نعطي لتاريخ الناس معنى مقبولا . أما أنت ، فلحسابك الخاص ، ولنفعك الفردية ، ودون كثير من تأنيب الضمير — فيما يبدو — ستقوم بعد بضع دقائق بنحر ذبيحتك البشرية . إلى اللقاء يا وزير الدولة ، أتمنى لك رحلة طيبة !

— يا سيد هاجن ، أظن أنني سأفعل ما تسألني .

— ستفعل ؟

— أظن أنني سأفعل ، وقد أ جانب بذلك الصواب . هناك صوت آخر غير هذا الذى ندعوه صوت العقل ، صوت آخر نسمعه في أعماقنا ، هو صوت سوانا ، صوت الآخرين ، نجاة غيرنا ونجاتنا ، انتصار غيرنا وربما هزيمتنا . وغريب أن تكون أنت الذى أسمعنى في نفسى هذا الصوت ، أنت الذى لا تسمع مثله .

وهنا تدق الساعة دقاتها الإحدى عشرة ، وكأنها تؤذن لأروع من حلول ساعة جديدة ، كأنها تعلن حلول المصير الأبدى !

— هل وزنت الأمور يا سيد ورنر ؟

— لو أفى وزنت الأمور لكنت الآن على غير هذه الأرض . لا أريد أن أزن شيئا ، أنت خاطبتنى بالعبارات التى من شأنها أن تجعلنى أتألم لألم ليز ، وها أنذا مشلول لا أنطلق .

— ما زال أمامك الخيار ياسيد ورنر .

ثم ينادى هاجن « كلوسوفسكى » ليصحب ورنر ، فيدخل تتبعه كاترين . ويهم كلوسوفسكى باصطحاب فرانز وكاترين إلى الحدود الغربية تنفيذا للتعليمات الأولى ، فيدهشه أن الرجل لا يريد أن يتخلى عن زوجته . وتقترح كاترين — وقد أنبأها كلوسوفسكى أن رسالة قد وردت أخيرا من مركز المراقبة الغربى تؤذن بانفتاح الحدود للجميع فى الساعة الثالثة صباحا — أن يظلا الساعات الباقية لتمكن ليز من العبور معهما . ترى هل انتصر الإخلاص فى قلب الرقيق هاجن ؟ فيها هو ذا — وهو يعلم أن فى الانتظار هلاك هذين العاشقين — يلح عليهما بمغادرة المكان فورا . لعله كذلك يكون قد أَرْضَى ضميره من ناحية الحزب إذ أدى واجبه ، ومن ناحية ليز إذ ضمها إلى زوجها ، ومن ناحية أخوين له فى الإنسانية إذ يحثهما على النجاة !

ولا تكاد كاترين تفيق من دهشتها لتحول هاجن عن موقفه حتى نسمع جلبة غربية فى الخارج ، ويدخل رجال البوليس الشرقى يتبعهم كراوس ، ويستولى الرعب على جميع من فى البيت ، إلا أننا نستطيع أن نميز صوت ليز تستغيث بهاجن ، وصوت فرانز يستغفر كاترين !

٤

● يأمر كراوس باعتقال الجميع ، دون استثناء كلوسوفسكى وليديا المتهمين بتدبير فرار القوم . ويختلج برفيقه هاجن ، فيلاحظ هاجن أن صاحبه ممتقع الوجه جريح ، أصابه رصاص حراس الحدود . ويستنكر القرار العاجل الذى اتخذه رجال الدولة ، والذى آب الرفيق كراوس ليضطلع بتنفيذه ، القرار القاضى بإعدام جميع أهل البيت رميا بالرصاص ! نعم ، تلك أضمن وسيلة لكتمان سر التخلص من « ورنر » ، ولكن ما ذنب أولئك الذين ألقى بهم سوء الطالع إلى بيت كلوسوفسكى فى هذه الليلة ؟ هب أنهم متهمون بمحاولة الفرار ، وهب أن كلوسوفسكى يعينهم على ذلك ، فماذا اقترفت ليديا حتى تستحق الموت فى زهرة صباحها ؟ كل جريمتها أنها أحبتك ، ووثقت بك ، وباحت لك بسر كان ينبغى أن تكتمه !

— ولكن ما عسى ذلك أن يغير من الأمر ؟ إن ليديا الفتاة بريئة ، وإنها لتحببنى . ولو لم تكن تحببنى ، ترى هل كنت أستطيع أن أقتلها وأنا أكثر اطمئنانا ؟ نعم ، هناك ليديا .. ولكن كم من فتيات مثلها لقين حتفهن لأنهن وقفن ضدنا ، أو لأن سوء الطالع أوقفهن فى ميدان الوغى حيث لا تميز القنابل من تصيب ومن تدع ، فكان أن قتلناهن ، لأن أمامنا ثلاثة أرباع الأرض نريد أن نخلصها من العبودية ، لأن فى ثلاثة أرباع الأرض عشرات

الملايين من أمثال « ليديا » يعدن كل يوم من المصنع منهكات القوى ليستقبلن أمسية مملقة من الأمل ، ويتركن أطفالهن للموت لأن امرأ لم يعلمهن كيف يعتنين بهن ، ويرقدن على الطوى فى طين آسيا الأصفر ، أو يقدمن أنفسهن على قارعة الطريق فى أوروبا لشهوة السادة الذى جعلوا منهن بغايا ذليلات . إننى ابن بغى من بلدة « ستيتين » يا هاجن ! — ومبادؤنا يا كراوس ؟ ومعنى جهادنا وواجبنا ، وجميع ما ينبغى أن نخلصه ، وجميع ما ينبغى أن نثار له ، إنى أهيب بهذا كله كما تهيب به أنت .. مثل امرأة وحيدة فى البيت تنادى زوجها إذ تسمع اللصوص ، ولكن زوجها لا يأتى !

— إذا بقيت ليديا على قيد الحياة تكلمت ، وإذا تكلمت ... ؟
— آه كلا ! دع هذا ! دع المنطق ! منطقنا الصلب الذى يخترق كالرصاصة صدرا إنسانيا . أظن أننى لا أرى تلك الرابطة المنطقية ؟ إنها لرابطة مقررة لا سبيل إلى إنكارها ودحضها . ومع ذلك فهى رابطة لا وجود لها ولا معنى لها .. انظر ! لقد انضممت إلى الحزب لأننى ضقت بمشهد الإنسانية منذ بدء تاريخها تصارع برؤسها المارد المجنون المعصوب العينين وهو يهوى يميننا وشمالا بفأس فى يده ! وها نحن قد صرنا جميعا ذلك المجنون نفسه ، نضرب على غير هدى ، وتحت الفأس توجد ليديا . ماذا تجدى ثورتنا ، وماذا تسدى من نفع إذا أصبح منطقنا باطلا ، وتجسم فى صورة ذلك الوجه الذى بلا عينين ، وجه الأعمى المتخبط الجراح الغضب ، وجه القدر ؟

— إذا كان انقتال دائرا ، وكانت هذه الدار مرصدا يصوب منه العدو

النار على خطوطنا ، أكنت تتردد في تدميرها ؟ هل كانت ليديا إذ ذاك تخطر لك على بال ؟ إننى أرثى لليديا كما ترثى أنت لها ..
— إن ليديا لا تثير رثائى بقدر ما تثير خوفى .. ترى كيف ستلقى إليها بالنبأ الفاجع ؟

ويقتاد هاجن رفيقه من كتفيه ويديره نحو الجدار ، فى المكان الذى اتخذته ليديا فى الفصل السابق . ويتخيل أن ليديا واقفة وجها لوجه أمام فتاها الأشقر ، تنظر إليه فى مقت ، وأن هذا الفتى ينظر إليها ثم يقول لها إنه آسف لأنه سيقتلها بعد هنية قصيرة ! .. فيستنكر كراوس من رفيقه هاجن أن يمازحه هذا المزاح البشع . وفى تلك اللحظة تهبط ليديا الدرج وتقف وراءهما صامتا !

هاجن : إنك لا تريد أن تقول لها إنك ستقتلها . لماذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فتردد ليديا :

— لماذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فيلتفت كراوس مجفلا مضطربا ويقول للفتاة الهادئة أمامه :

— ماذا تفعلين هنا ؟ من أذن لك بالجيء إلى هنا ؟

فترتاع ليديا وتلعثم :

— قالوا لى إنك صاحب الأمر .. لم أصدق .. كنت أريد .. كنت أريد ..

وتلوذ بالفرار من حيث أقبلت !

● ولكن المؤلف يتبعها إلى غرفتها في المشهد التالى ، حيث نراها ونسمع حوارها مع الكونتيسة . ويا له من حوار مؤثر : أحقا هذه هى آخر ليلة فى حياتها ؟ يخيل إليها أنها تحلم ، وأنها ترى فى حلمها شخصا يدنو منها ليقتلها دون أن تستطيع الهرب ولا الدفاع عن نفسها ، لأنها أسيرة الكرى !.. غير أنها تكفر بحلمها ، وتنكر أن يكون له مكان فى الواقع . ثم يخطر لها أنها دميمة ، وأنها لو كانت جميلة لاستطاعت أن تثنى الفتى عن قتلها . وذلك خاطر لم يطرأ على بالها قبل تلك الليلة !

— ينبغي أن أعرف : لو قد أتيح لى أن أعيش ، هل كان يهمنى بى رجل من الرجال ؟ لا تكذبى أيتها الكونتيسة ! ما أنا إلا فتاة دميمة لم يكن لها فى حياتها أى أمل . فتاة دميمة ما كان ليحدث لها أى شىء ، تموت ميتة لا معنى لها بعد حياة قصيرة لا معنى لها ... أما أنت فقد كنت جميلة أيتها الكونتيسة ، وأحبك الرجال .. وستكتفك جميع ذكرياتك فى لحظتك الأخيرة ، ولا تموتين وحيدة مثلى . أنا ليس لى ذكريات ، ولم يقع لى شىء .. لا بد أن أعرف هل كانت حياتى ستتصل على هذا المنوال ؟..

— إنك لجميلة يالديدا .. وإنك لصبيية ...

وتأخذ المرأة رأس الفتاة الشقراء بين يديها فتزج شعرها إلى الوراء قائلة

لها :

— أظهرى وجهك ولا تختبئى وراء شعرك . إنك كالحيوانات الصغيرة النافرة التى تتسلل بحذاء الظلال . لكى تكونى جميلة ينبغى أن تؤمنى بأنك جميلة ، ينبغى أن تتقدمى إلى النور . وإننى خليقة بأن أصنع منك فى عشر دقائق فتاة من أولئك اللواتى كن يخلبن رجال السفارات فى الحفلة الراقصة التى كانت تقيمها الرئاسة فى فارسوفيا !

— جميلنى أيتها الكونتة ! هلمى ! أسرعى ! فليس لدينا عشر دقائق كاملة . إننى أريد أن أكون جميلة . أريد أن أكون جميلة للمرة الأولى . إنك لا تفهميننى . أنا أيضا ، لساعة واحدة خلت ، لم أكن أفهم من الحياة شيئا . كنت أنتظر ، وكنت خائفة . كنت أتهيب الحياة . أما الآن فأنى لا أرهب شيئا منها . إنها لصافية شفافة حتى قاعها ..
وتلح الفتاة الرقيقة على المرأة المجربة فى أن تجملها . فتقرب الكونتة منها ، وتصفف لها شعرها ، وتفتح ثوبها فوق نحرها ليظهر جيدها ، وتلون وجنتيها بمسحة من مسحوقها الأحمر ، ثم تمنحها عقدتها اللؤلؤى الثمين . وتمسك ليديا مرآة صغيرة فى يدها ، وتنظر إلى صورتها مليا ثم تقول :

— إنك جميلة يا ليديا !

وتنفخ على الفور فى مرآتها فتغشى أنفاسها الندية صقال الزجاج اللامع ، وتقول لنفسها :

— نفخة واحدة تمحوك . ليس بين الحياة والموت إلا هذه النفخة !

ثم تجلو مرآتها وتطيل النظر فيها وتقول :

— وداعا أيتها الجميلة ليديا ..

وها هو ذا الشرطى فى معطفه الفضفاض ومشيته النظامية الثقيلة يدخل ويأمرها بالخروج دون أن ينظر إليهما ، فقد حانت الساعة ! وترى ليديا فى هذا الرجل الجامد — هذا الإنسان الذى حولته النظم الاجتماعية إلى آلة صماء ، عديمة الشخصية ، تتحرك وتنفذ دون أن تشعر أو تفكر — ترى فيه رجلها الأول منذ أن تجملت ، وتريد أن تلمس أثر جمالها فى عينيه . فتدنو منه وتساله فى سداجة أن يسمح لها بأن تنظر فى مقلتيه .
فتحشم الشرطى قائلا :

— أيتها الرفيقة !

فتجيبه :

— إننى لست رفيقة . إننى ليديا . هذا الجسم الذى ألمسه من فوق هذا الثوب ، إنه ليديا ، إنه أنا ... أنا ، يالها من كلمة عجيبة !
وتظن الكونتة أن الفتاة فقدت صوابها ، فتحنو عليها .. ولكن ليديا تستأنف حديثها هذا الساذج الغرير الحكيم معا ، باسطة يدها للشرطى :
— هذه اليد ، إنها ليديا . انظر ، إننى أثنى وأبسط إصبعها ، وإصبعها الآخر وإصبعها ثالثا . وأفتح يدي ، وأضمها . هذه ليديا . إنه لشيء عجيب أن أكون « أنا » ، شيء عجيب أن أكون حية !

ويختلط فى حديثها دلال الصبا ، والغزل الذى تتوق إليه ، والفزع من الموت الذى ينتظرها ! تأنس فى هذا الشرطى الذى سيطلق عليها الرصاص عما قليل رجلها الأول والأخير ، عاشقها ، فرصتها الوحيدة لأن تعرف الحياة والحب . تعرض عليه جيدها وقد أزاحت عنه شعرها سائلة إياه أن يصوب إليه رصاصة ، دون أن يندرها بشيء قبل أن يفعل .



تعرض عليه جيدها في استسلام الذبيحة البريئة ، وفي إغراء المرأة الفاتنة ،
وتخاطبه بلغة الغرام :

— يا حبيبي ، هل أنا جميلة ؟

فيجيب الشرطي في لهجته الصارمة :

— إنك جميلة .

— إنني جميلة ؟ فهل تحبني ؟ هل تشتينني ؟

— نعم !

فتضحك ثم تقول :

— هل تأخذني بين ذراعيك إذا تجردت من ثيابي وأصبحت

عارية ؟

— نعم .

— قبلني !

فيتردد الشرطي ، ثم يقبلها . وتغمض الفتاة عينيها لتذوق قبلته ،

أو لتغيب في حلمها المفقود ، فها هي ذى أول قبلة على وجنتها من شفتى رجل ، وإن كان هذا الرجل هو الشرطى رقم ٢١٨ ، البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاما . وتصمت قليلا ثم تقول له :

— إنك ستمضى إلى أيام من الحياة وسنين من الحياة . هلا اصطحبتنى معك ؟ فأنى أريد أن أعيش معك هذه الحياة التى تشبه الأبد .
— لا أستطيع ..

— لا تخش شيئا . إنى لا أريدك على أن تعصى أوامرك . خذ هذه المرأة الصغيرة . إننى أعطيك ليديا . فقد حبست فيها صورة ليديا . هذا الوميض الذى تمحوه نفخة ، ويقضى عليه وميض بندقيتك . هل تحفظها ؟ هل تحفظ الوجه الذى جعلته ؟
فيجيب الشرطى وقد أخذه التأثر :

— إلى يوم ممتنى .
— إلى يوم ممتك ؟ أنت أيضا سيجىء يوم تموت فيه ؟ ولكنه يوم بعيد ، ودونك قبله ملايين الأيام . إنك رجل خالد .. ينبغى أن نغضى الآن .

— ينبغى ..
وتتجه ليديا والكونتة نحو الباب ، بينما يظل الشرطى واقفا فى مكانه كالمشده ينتظر أن يفيق ، فتنبه ليديا فى رفق :
— هيا بنا أيها الشرطى . تشجع !

وننتقل إلى غرفة أخرى من بيت الليل ، فتجد كاترين وفرانز واقفين متعانقين ، فنيا فى عناقهما ، وغابا عن كل ما حولهما فى نظرة واحدة

طويلة متصلة . إنهما لا يسمعان صوت ليز تخاطب زوجها ملهوفة
مفجوعة مستيئة ، تدعوه إليها ، وتقسم له أنها لم تطلب الشرطة ، وإنما
سعت إلى الفرار معه ، ولا أدل على ذلك من أنهم قرروا إعدامها هي
أيضا ! ويتقارب فرانز وكاترين ، ويغمضان أعينهما كأنهما ينتظران
شيئا . ولا يلبث فرانز حتى يترنخ فتسنده كاترين دون أن تفتح عينيها ،
كأنها قد أحست بذلك الخور في جسمها هي . ثم يدخل كراوس
وهاجن والضابط . وتجهد كاترين لحظة في الاحتفاظ بفرانز متوكئا
عليها ، ثم يهويان معا ، متعانقين دائما ، جامدين . لقد تجرعا من السم
ما أخرجهما من الدنيا الضيقة ! غير أن ليز ترتدى على الجشتين تحاول أن
تفصلهما ، وتستسلم لليأس والقنوط إذ ترى نفسها وحيدة منبوذة .
فهذا زوجها يموت على مشهد منها دون أن يشاظرها موته ! وتتعطل المرأة
المشردة بالسراب ، تلوذ بهاجن ، وتناشده أن يمسك بها وألا يتخلى عنها ،
فإنها في حاجة إلى شخص يقف بجوارها عند إعدامها ، وما زال وهما
يصور لها أن هاجن معتقل مثلها ينتظره نفس المصير . تلتصق إذن
بهاجن ، ويحاول الضابط أن ينتزعها ، فتصيح صيحة رهيبة : « لا ! » .
وإذ يرى هاجن تعلقها به ، يذود عنها الضابط ، ويطيّب خاطرها . ولكن
الضابط يريد أن يؤدي واجبه ، فهو مسئول عن المعتقلين . وتفهم ليز من
نقاش الرجال حولها أن هاجن هو الذى دبر اعتقالها ، ومع ذلك فهي
لا تقوى على أن تتمثل نفسها الشريدة مطرودة من هذا الملاذ الأخير .
ويصمت هاجن إزاء هذه المرأة التى تتضور من اللهفة والسخط
والأسى ، ثم يقول :

— كفى . هلموا اعتقلوني !

فتعقد الدهشة السنة الجميع ، ولا يقطع الصمت إلا شهقات ليز ، ثم يستأنف هاجن حديثه :

— إننى متواطىء مع هذه المرأة . وها أنذا متلبس بالفرار معها من الجمهورية الشعبية إلى الخارج !

كرأوس : هل جنت يا هاجن ؟

هاجن : لقد كذبت عليك حين قلت لك إننى سأحاول استبقاء

ورنر وزوجته هنا حتى تعود . فقد كنت أريد أن أبعذك

عنى لأتخلص من رقابتك ولأعبر الحدود مع ليز . ولكنك

عدت سريعاً . أسمعيني يا ليز ؟

تمسك ليز عن البكاء وترفع رأسها . إنها لا تفيق من مفاجأة

إلا لتلقفها مفاجأة أخرى . ولا تكاد من فرط دهشتها أن تصدق

ما تسمع ، غير أن هاجن يقترب منها ، ويستغفرها معذراً عن صمته

بما ساوره من خوف منذ لحظة ، ويؤكد لها أنه معها مهما يحدث . فترتمى

على صدره فى فيض من الشوق والامتنان !

كرأوس : هاجن ! هلا شرحت لى ماذا تعنى ؟

هاجن : إننى معها . معها وعليكم .

ويجذب ليز ويخطو معها صوب الباب المؤدى نحو الغرب ، سائلاً

الضابط أن يعتقله . فيوجه الضابط إلى كراوس نظرة المستفهم ، ولا يملك

الرفيق كراوس إلا أن يقول لرفيقه هاجن : « لك ما تريد » ،

وللآخرين : « إنه سيقدم حساباً عن تصرفه هذا أمام محكمة الشعب » .

ويخرج الضابط للبحث عن المدعو أدلر واعتقاله ، بينما يقتاد الشرطة ليز إلى حيث الآخرون ينتظرون .. وينفرد كراوس بهاجن :
يستوضحه في عتاب رقيق أولاً لماذا يتحول ويرتد في وسط المعركة ؟
فيعترف هاجن — وهو من المجاهدين الأشداء — بأن في نفس الإنسان شيئاً أقوى من الإنسان ، هو هذا الشعور الذي يدفعه إلى الغوص في الماء لإنقاذ طفل أخذ في الغرق ، رغم علمه بأن التيار عنيف قاتل ! لكن كراوس يأخذ عليه إفراطه في الشراب ، فلا يجيب الرفيق المرتد إلا بصب كأس من الخمر يجرعها بعد أن يرفض صاحبه أن يشرب مثله !
كراوس : إنك لم تحترس من تهكمك كما ينبغي . والرجل الذي يسخر من نفسه رجل قد تسرب إليه الشك ... لقد أصبحت غير أهل للثقة ..

هاجن : إذا كنت قد أصبحت غير أهل للثقة ، فلماذا أرسلوني للخارج ؟

— أرسلوك تحتى مراقبتى !

— أجل ! بمثابة اختبار لى ؟

— تقريبا ..

— ولمراقبتى اختاروا أحسن أصدقائى ؟

— لبعث الثقة في نفسك .

— إنهم لم يسيئوا الاختيار ..

— لست متأكدا من ذلك .

— لماذا ؟

— أشاروا على بأن أعرضك لبعض المغريات . وأعتقد أنني حاولت
على النقيض إبعادك عن العثرات !

— ولماذا ؟

— لأنى أحبك .

— وأنا أيضا كنت أحبك يا كراوس .

ويرفع كأسه ويترب نخب صداقتهما القديمة ..

— هناك شيء أعجز عن فهمه يا هاجن ، ألا وهو أنك استطعت أن

تحب هذه المرأة إلى درجة الارتداد والهلاك من أجلها ؟!

— أنا ؟ أحب ليز ؟ إنك لمجنون !

— فما شروءك فى الفرار معها ؟

— فليتحول هذا النبيذ الغربى الممتاز إلى سم زعاف إذا كانت هذه

الفكرة قد خطرت لى على بال !

— إذن فكل شيء ملفق ؟

— يقينا ... لقد قمت بواجبى كمجاهد أمين ، فاستخدمت هذه

المرأة لاستبقاء ورنر هنا حتى عودتك . أتقنت العمل . ولكن حدث

ما لم أكن أتوقعه .

فهو لم يكن يتوقع مشهد هذا اليأس الخائر الذى لا سند له ، مشهد

هذه المرأة المهملة المنبوذة التى اعتقدت لحظة أن شخصا يهتم بها ، ثم

وجدت أنه خدعها وأسلمها إلى الموت وحيدة ضالة مدحورة ! لعلها

لو قد استقبلت مصيرها رابطة الجأش لما لان لها قلبه . إنه على كل حال

ليس بخائن ، وإن ظهر بمظهر الخائن أمام رجال الحزب . وحسبه ما يجد

من الرضا منذ آنس من هذه المرأة التعسة أنها ستموت في كنفه سعيدة ،
أسعد مما كانت طوال حياتها . وهل من شأن الشفقة أن تقف عند حد ؟
إذا تألم المرء ، قد يستطيع أن يتدبر ألمه مع نفسه كما يروق له ، ولكن إذا
تألم سوانا ، طفلا كان أم حيوانا ، هل نستطيع أن نحد من عطفنا عليه ؟
إن الشفقة لملك أمر من تمسه حتى لا تدع له أضيق حيز للتخلص من
وطئها . وقد يتسرب الوهن أو الجنين لحظة إلى النفس المخلصة في
جهادها ، فتدفعه وتتغلب عليه وتستأنف جهادها بعزيمتها المعهودة ..
أما الشفقة فلا راد لها من قوة الشكيمة وحزم الإرادة . ليس هاجن
جبانا ، وإنما هو لا يستطيع أن يقاوم نظرة ليز ولا نظرة ليديا في
شقوتها . إذن لقد أصبح غير صالح للخدمة ! ورفيقه يذكره بأن الطريق
أمام الحزب مازال طريقا طويلا شاقا ولا بد من أن تضرجه الدماء ، لا بد
من القسوة حتى يشيد النظام الجديد عالما ليس للشفقة فيه مكان
ولا نفع ..

هاجن : ليس لآلام الدنيا آخر يا كراوس . لن تنتهى شقوة البشر
قبل أن تنتهى كربة آخر الأحياء على ظهر الأرض ، وهو
يحتضر وحيدا وليس أمامه إلا وجه الموت ..

وماذا عسى أن يصنع ذلك الرفيق برفيقه ؟ يعرض عليه أن يتسرع في
الهرب وأن ترديه أثناء محاولته الفرار رصاصة يطلقها عليه أحد رجال
الحدود ، فهو لن يحاكم محاكمة علنية لو عاد موفور العافية ، لأن الحزب
يريد أن يكتم عن الملاء تلك القصة . يرفض هاجن هذا العرض في شمم
الإنسان الذى يشعر بكرامة نفسه ، وفي إباء المجاهد الباسل الأمين الذى

يحرص على أن يؤدى حسابا عن أمانته ، وأن يعترف بخطئه إذا كان قد أخطأ !.. ويفترقان . عزيز على كراوس أن يودع صديقه ورفيق جهاده وداعا أبديا . ولكن هاجن يحذره من أن يلين ، وأن تتسرب إلى نفسه العنيدة أشعة الشفقة فتصهرها وتفسد عليه أمره ! ينظر كل منهما في عيني صاحبه ، ويكتفى هاجن بأن يضع يده على كتف كراوس ثم ينأى عنه ، بينما يظل هذا الأخير في مكانه جامدا . ويسأله هاجن أن يأذن له بمشاهدة إعدام النزلاء ، وبأن يقف بجوار ليز حتى لحظة مصرعها ، كى تعتقد أنه سيموت معها ! ويهم بالخروج ، إلا أنه يعود سائلا :

— كراوس . أتعدم ليديا أيضا ؟

— ليديا أيضا .

ويبقى كراوس وحده . ثم يدخل الضابط وقد قبض على « أدلر » الذى كان يحاول الفرار ، لا إلى الغرب كما توقع الجميع بل إلى الشرق ! ذلك أنه قسيس أراد أن يدلف إلى الدولة الشرقية ليحمل إلى أهلها المضطربين المتألمين — وما أكثر من يساقون هناك إلى الموت ! — رسالة حب الله لهم ، وحاجتهم إلى أن يشفق بعضهم على بعض . ونسمع فى حوار الرجلين هذين الصوتين المتناقضين : صوت المذهب المادى الذى يحاول أن يحل مشكلة الإنسان بإلغاء وجود الله ، وصوت الإيمان الوثيق الذى لا يرى فى غير الرحمة والتضحية مخرجا للإنسان من مأساته القائمة . وما من شك فى أن المؤلف قد أقحم شخصية هذا القسيس فى الرواية ، حيث لا يشترك فى توجيهها ولا يضطلع بدور فعال ، لمجرد النقاش الفكرى الذى يثيره الموضوع ، والذى لا تكتمل عناصره

إلا إذا تجادل متحدث باسم المادية مع متحدث باسم الله . وهذا النزاع بين
المادة والروح قد أصبح بعد الحرب الأخيرة أهم ما يشغل الكتاب في
بحثهم المتصل للإنسانية الضالة المتخبطة عن حل يعصمها من التردى في
هوة الهلاك التى انفغرت دونها . وما أكثر ما يظهر القساوسة على المسرح
الفرنسى فى هذه الأيام ! ولعل تيرى مونيه متأثر فى هذا الجزء من رؤايته
ببطل من أبطال الكاتب الإنجليزى المعاصر « جراهام جرين » رأيناه أخيرا
يحيا حياة غريبة على خشبة المسرح وفى أشرطة السينما تحت عنوانى « القوة
والمجد » و « قد مات الله » !



ومهما يكن من شىء فإن خاتمة « بيت الليل » خاتمة قوية مؤثرة :
فهؤلاء هم أهل الدار يهبطون السلم فى حراسة الشرطة ويتجهون إلى
الباب الخارجى . وتنشد ليديا وهى تسير فى وداعة ، هذه الأبيات الرقيقة
.. وكأنها ترفى نفسها أو تعاتب القدر :

لقد لبست ثوبى المتألق كالشمس ولبست السماء ثوبها القاتم
كالخريف أهى السماء التى تخطيء أم أنا ؟ هل يأتى ؟ هل يأتى حبيبى ؟
وينهرها الضابط بعنف فتصمت . وتحيم الرهبة على الجميع . ويخرج
الواحد تلو الآخر من هذا الباب الذى لن يعود منه إلى الأبد . أما كراوس
فيظل فى مكانه جامدا دائما . ثم تسقط الستارة .

من كنز التراث

حلمى مراد

- رسالة الغفران
- الأمير
- جوكندا
- العقد الاجتماعي
- ألكسندر ديماس
- مروحة الليلى ونديمير
- سالومى
- ملرسة الأرامل
- عنلما تخون المرأة
- الأسلحة والإنسان
- مذكرات كازانوفا

رقم الإيداع ٣٥٧٦ / ٩٢

الترقيم الدولي 5 - 0730 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة النصار وشركاه

حليم مراد يقدم كنوز كتب التراث

- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| ١ - رسالة الغفران | ١٠ - حياتي مع بيكاسو |
| ٢ - الأمير | ١١ - أوسكار وايلد |
| ٣ - العقد الاجتماعي | ١٢ - موزار (وأعلام آخرون) |
| ٤ - سالومي | ١٣ - ملكات ونساء |
| ٥ - جيوكندا | ١٤ - الأسلحة والإنسان |
| ٦ - مدرسة الأراميل | (ومسرحيات أخرى) |
| ٧ - ألكسندر ديماس | ١٥ - الملك أوديب |
| ٨ - مروحة اللادي وندرمير | ١٦ - دكتور فاوست |
| ٩ - مذكرات كازانوفا | ١٧ - ليدى هاملتون |



0283931

الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة المحار وشركاه